محمد عنانى

زوجة أيوب

قصة شعرية



محمد عنانى

زوجة أيوب

قصة شعرية

القاهرة ٢٠٠٤



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٤

الإخراج الفنى والغلاف

أميمة على أحمد

تصدير

هذه قصة شعرية أو قصيدة قصصية ، تتناول حادثة حقيقية وقعت فى مدينة رشيد ، فى أربعينيات القرن العشرين ، وشهدت بنفسى طرفًا منها ، وإن كنت صغيراً ، وهى تقوم - مثل **حكاية معزة** - على الراوى الذى يحكى القصة إلى حشد فى بلدته ، كما يروى عن راوية آخر أصغر سنًّا ، ويلتزم الراوى الهرم بتقاليد البحر الشعرى الذى اختاره (ولو لجأ إلى الشطرة الخماسية) ، بخلاف الراوى الصغير الذى يكثر من زيادة عدد التفعيلات فى البيت الواحد ، وقد تتفاوت فى روايته أطوال

الأبيات حتى فى الفقرة الواحدة ، ولكنهما يلتزمان جميعًا بالوزن والقافية الواحدة فى كل فقرة .

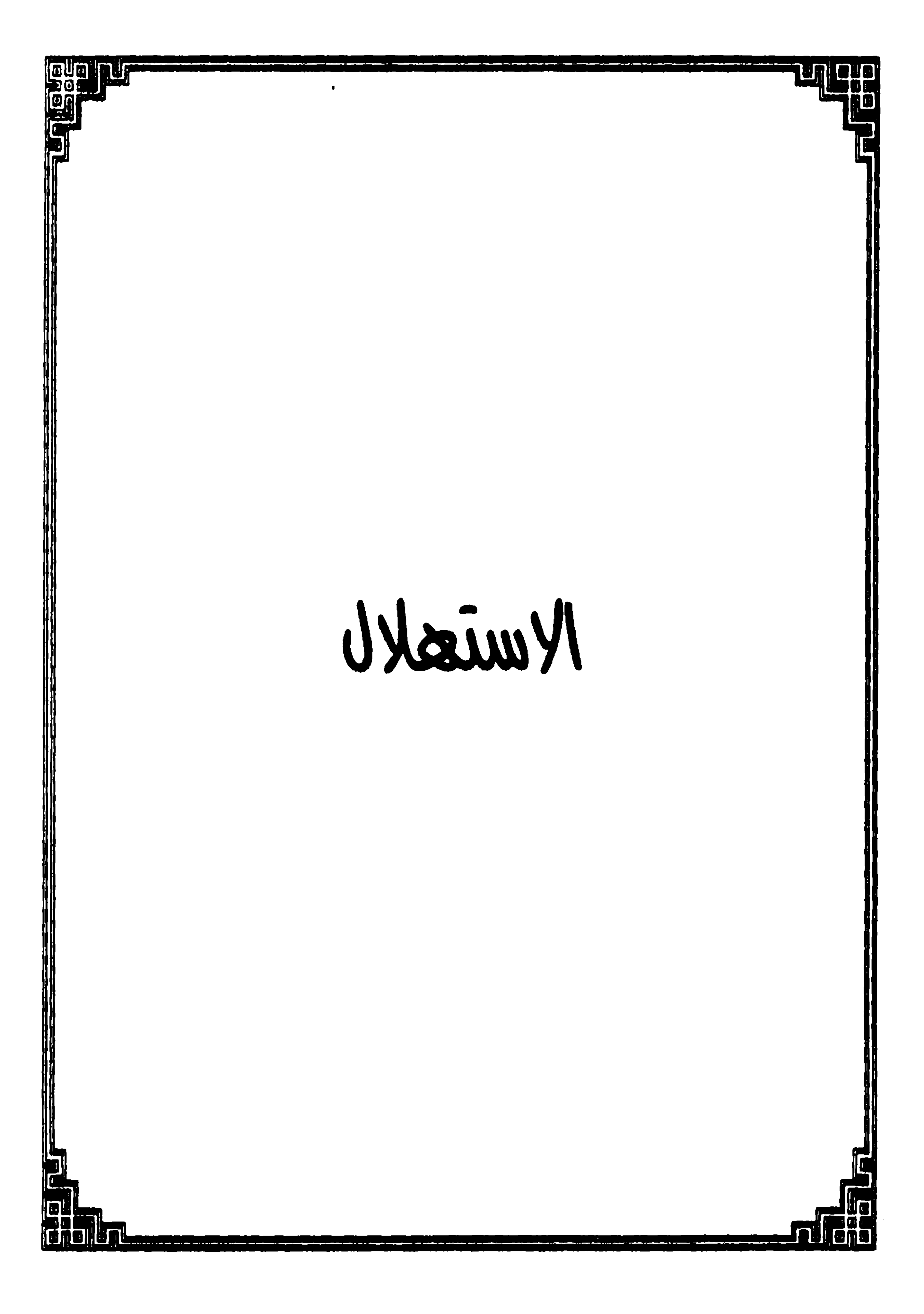
والقصة مكتوبة بالفصحى المعاصرة ، وفى فقرات طول كل منهما ١٦ سطرًا ، مثل **حكاية معزة** ، وتتكون مثل تلك القصة من أربعة أناشيد واستهلال وخاتمة ، وأما اختيارى للأصل الواقعى فقد تأثر بقراءتى **سِفْر أيوب** فى الكتاب المقدس، وما عرفته من التراث الشعبى عن 'صبر أيوب' والقصص المروية (والمكتوبة) عنه، دون التزام بما جاء فى التراث الدينى (المسيحىّ أو الإسلامىّ) عنه أو فى الروايات الشعبية ، فالمصدر الأول هو الحادثة الواقعية ، وإن كنت أضفيت عليها ما اقتضته المعالجة الشعرية من 'ألوان الخيال' (كما يقول الشعراء الرومانسيون الانجليز ، فابتعدت بعض الشىء عن الأصل الواقعى ، مثل تغيير اسم زوجة أيوب الأولى إلى جميلة والاستعانة بالراويين ، وإضافة ما يحدث للراوى الصغير فى ثنايا القصة .

والشعر القصصى أو القصص الشعرى نوع أدبى جديد نسبيًا فى الأدب العربى ، إذ لم يَشِعْ عند القدماء ، وإن كان

المحدثون قد أَحْيَوْه ، وله صوره المتعددة فى الأدب الشعبى (المكتوب بالعاميات المحلية) ولكنه عميق الجذور فى الآداب الأوروبية ، منذ الملاحم الكلاسيكية وحتى القرن التاسع عشر ، ولذلك فلا أريد أن أخوض فى أى قضية نقدية ، فما هذا إلا تصدير مقتضب ، ولا أريد أن أثقل على القارئ بمعايير القصص الشعرية فى الآداب الأوروبية وكيف تختلف عن معايير الشعر الغنائى (بالمعنى العلمى المحدد الذى يقابل مصطلح Lyrical الانجليزى) ومعايير القصة القصيرة الحديثة التى تكتب نثرًا ، فلهذه القضايا كتبها المتخصصة ، بل سأكتفى بأن أقول إننى أكتب حكاية منظومة ومقفاة ، بمنهج الشعراء الرومانسيين الانجليز ، ففى الشكل محاكاة ، وفى الجوهر قصٌّ شعرىٌّ لحادثة وقعت ورأيت فيها ما يصلح للمعالجة الشعرية وحسب .

محمد عناني

القاهرة - ٢٠٠٤



الاستهلال

(١)

أعـــودُ إليكمْ رفـــاقَ المســـاءِ
بشـــعـــرٍ قليلٍ وفنٍّ أَقَلّ
وكنتمْ طلبـتمْ نشـيـداً جـديداً
بِهِ وابلُ الفَـــرْحِ أو قَطْرُ طَلّ
ولـكـنّ كُلَّ الـذى فـى الحـنـايـا
بقــايا شــبــابٍ هزيلٍ ومَــحْلْ
فَـرَبّةُ شـعـرىِ التـى اعْـتَـدْتُها
مَـضَتْ لسـوایَ إذْ الشـیـبُ حَلّ
وشــأنُ الغـوانـى عُـزُوفُ وصَـدٌّ
إذا لاح فى الرأس شــيبٌ يُطِلّ
ولكنَّ قلبى شــــديدُ المِراسِ
وفى النفسِ دفعُ الهــوى لا يكلّ

ودَفْقُ غـرامٍ بكل جـمـيلٍ
ولـو تـاه عـن كـلِّ عـينٍ وضـلّ
فلم أكـترثْ لعـوادىِ الزمـانِ
ولـم أكـتـرثْ لبـلاءٍ أجلّ

(٢)

عـجـبتُ لأولى ظلالِ النذير
فـهل يطمسُ الشيبُ نورَ الأملْ؟
تَوَلَّى الزمـانُ وجَـافَـى المكانُ
ولكنّ قلبى فَـتىً لـمْ يَزَلْ
فـإن أَسْـدَلاَ فـوقـهُ سـاترًا
أبى الشـعر للعُـمْـرِ أن يَنْسَـدِلْ
وعـادَ إلى بارقـاتِ الحـيـاةِ
لنسجٍ من الوَشْـىِ لم يكتـملْ

فـإن تَكُ ربةُ شـعـرى مَـضَتْ
فـإنّى لِهِـجْرَانِهَـا مُـحْـتَـمِـلْ
وقلبى استطابَ مراقىِ الخيـالِ
وحَـلَّ بـأقـطـارهـا وارتَـحَـلْ
هدانى لشيطانٍ شـعـرٍ مـريدٍ
يـخـــــادعُ فـىّ دواعـىِ الأَجَلْ
يَعَضُّ بنابيـه عـضًـا غـريبًـا
له لذّةٌ مــثل بعض القُــبَلْ !

(٣)

وشـيطانُ شـعـرىِ المريدُ الجـديدُ
صـغـيـرٌ طـمـوحٌ ويـهـوى الفِـتَنْ
يريدُ ارتيـادَ المحـالَ البـعـيـدَ
لـيـنـسجَ من وَهْـمِــــهِ كل فنّ

فكيف أُعـيـرُ إليـه جَنَاحًـا

قـوادمُـه قـد بَرَاهَا الزَّمن ؟

ومنْ أيـنَ آتـيِ لهُ بـالجـديدِ

وكلُّ الذى فى يدى مُـرْتَهَنْ ؟

أطوفُ بأرضِ الصِّبا باحـثًـا

عن الفَـرْحِ مـثل هَصُـورٍ وَهَنْ

فلست أُلاَقِى سوى الصادحاتِ

بأنغام عُـمْـرٍ مضى بالمِحَنْ

وقد أجدُ الفَرْحَ فى بعضِ رُكْنٍ

خـبىءٍ بعيـدٍ به قـد كَمَنْ

فَأَنْبُشُـهُ أستعيدُ الشبابَ

ومـرأىَ الروائعِ فـوقَ القُنَنْ

(٤)

ولكنّ قـصـةَ هذا المسـاءِ
مـزيجٌ من الواقعِ المُرِّ فـينا
شـرابٌ غـريبٌ به قَـسْـوَةٌ
ولَذْعَـةُ أخـلاطِهِ لنْ تلينا
ولكنّ رحـمـةَ ربِّكَ عندى
تجىءُ لِكُلِّ صـبـورٍ يقـينا
ومـا أنا إلا امـرؤٌ قـد صَـبَـرْتُ
فـأكـرمنى الله دُنْيَـا ودِينَا
وخصّنى اللهُ بالشـعرِ كَـيْمَـا
أَحُضَّ عـبـاداً له مُـتّـقـينا
ولستُ أقـولُ بـأنى غَنِـىٌّ
بمالٍ أتـى يَبْـهَـرُ الناظرينا

ولكنْ لَدَىَّ قناعةُ نفسٍ
تُحيلُ الكفافَ طَعَامًا سَمِينًا
وعندى من الحب نبعٌ عميقٌ
يُفَجّرُ فى القَفْرِ ماءً مَعِينًا

(٥)

وأبدأ يا صحبُ هذى القُصَيْصَهْ
بشرحٍ لمقصدِ شعرِى الجديدْ
فإنى نزلتُ ببحرٍ تهبُّ عليه الرياحُ
فيعلو به الموجُ حتى يميدْ !
ولم أستَطِعْ كبْحَ ريحٍ شرودٍ
لأرسو على شطّنا فى رشيدْ
ولم أكُ أدرى بأنّ الرياحَ
تَهُبُّ كعفريتِ جنٍّ مريدْ

فأطلقتُ للشعرِ ألحانَهُ
تقاذفُها الموجُ أَنَّى يريدْ
فإنْ يهدأْ الموجُ تدنو السطورُ
إلى ما أَلِفْتُمْ بكل قصيد
وإن ثارَ طالَتْ سطورِى وشَطَّتْ
لتبعدَ عن لحنِ كُلِّ نشيدْ
وها أَنَذَا قد طويتُ الشراعَ أرومُ النجاةَ
من العاصفِ المُسْتَبِدِّ العنيدْ !



النشيد الأوّل

(٦)

وفارسُ قِصَّتِنَا يا صِحابُ امرأهْ
سأذكرُها ما ذكرتُ النّساءْ
فَلَمْ تَكُ تزهو كما يَزْدَهِينَ
ولم يَكُ فيها بصيصُ رُوَاءْ
أَتَتْ للحياةِ بغير رضاءِ أبيها ولا أمّها
ولم تَلْقَ من أى فردٍ رضاءْ !
وكانتْ طريدةَ أترابِها فى الصَّباحِ
وتقضى النهارَ بأَسْرِ الشّقاءْ
تُحِسُّ نُزوعًا دفينًا بها للبكاءِ
ولكنّها حين يأتى المساءْ
تخبُّ على مَتْنِ أحلامِها فى هَنَاءٍ
فترتادُ كلَّ رفيعٍ وناءْ

تُحَطِّم كلَّ قيودِ الزمانِ
وتسمو إلى عالمٍ من بَهَاءْ
وتخلقُ كونًا لها وَحْدَهَا
به من أطَايِبِهِ ما تَشَاءْ !

(٧)

وكانت نظيمةُ (هذا اسمُها) من هواةِ الغناءْ
وتهوى التَّرَنُّمَ فى كل آنْ
تحاكى لُحُونَ المؤذّنِ وَقْتَ الأذانِ
وفى هَدْأَةِ اللَّيل أُغْنِيَةَ الكَرِوَانْ
وكان أبوها يُفَضِّلُ إخفاءَ حُبٍّ أصيلٍ
لِوَقْعِ الغناءِ وسِحْرِ اللّسانْ
ويُصْغِى بِحُجْرَتِهِ صامتًا للصّغيرةِ
فى دَهَشٍ وعظيمِ امتنانْ

وكيف له أن يلومَ الفتاةَ التى
تُشيعُ الحبورَ بكل مكانْ
خُصوصاً إذا عادَ يوماً حزيناً
فصافَحَتْ الأُذْنَ ألحانُ جانْ !
لتغسلَ كلَّ هُمومِ الحياةِ
وتمحُو من النفسِ جَوْرَ الزّمانْ
وما كان يحلمُ أن تستجيبَ السُّنونُ
فيحكِى بألحانِها الخافِقانْ !

(٨)

وما إن تخطّتْ نظيمةُ طورَ الطفولةِ حتّى
أُصيبَ أبوها بداءٍ عُضَالْ
وكان من العاملين بِفَتْلِ الحبالِ
وفى مَصْنَعٍ عندَ سَفْحِ التّلالْ

أجيرًا يُدَبّر قوتَ الصّغارِ
ومن ذا يُقَدّر هَمَّ العيَالْ !
وأَسْرَعَتْ الأمُّ تدعو الجميعَ
إلى ما يُجَنّبُ ذُلّ السؤالْ
فأمّا الذكورُ فقد شاركوا فى الكفاحِ
بأجرٍ زهيدٍ – وليس يُعَدُّ بمالْ !
وأما البناتُ فكن يُجِدْنَ الحياكةَ فى دارِهِنَّ
وفى مأمنٍ من عُيونِ الرّجالْ !
وساءت بوالدِهِمْ حالُهُ وادْلَهَمَّتْ
فباتوا يخافونَ سوءَ المآل
وكانت نظيمةُ تتلو على رَأْسِهِ
من الآىِ ما ذاعَ صيتًا بكلّ مجالْ !

(٩)

وأشفقَ أهلُ رشيدَ على أَهْلِ بيتِ المريضِ
وقد باتَ في بَرْحِهِ يُحْتَضَرْ
وراعَ الجميعَ رنينٌ بصوتِ نظيمةَ يسمو بهِ
فوقَ أصواتِ كُلِّ البَشَرْ
وزادتْ زياراتُ بعضِ الكبارِ
ليستمتعوا برنينٍ نَدَرْ !
وما لبث الشيخُ أن فاضَ روحًا
فغامتْ بعينِ الجميعِ الصُّوَرْ
وقالوا نظيمةُ ماتَ أبوها - فتاةُ التلاوةِ ذاتِ الطّلاوةِ ؟
يا عجبًا لصروفِ القَدَرْ !
ومَرَّتْ ليالى الحدادِ كغيمٍ سَفَتْهُ الرياحُ
فَوَلَّى وغابَ بِلالُ المَطَرْ

ولكنّ ديمَةَ حُزْنٍ نظيمةَ هاطلةٌ فى الجفونِ
وتَسْقِي الخدودَ عجيبَ الدُّرَرْ !
ويكسوُ التأسىِّ غناءَ الفتاةِ
فيغدو كصوتِ حَمَامٍ هَدَرْ !

(١٠)

وكنتُ - رفاقَ المساءِ - صغيرا
حريصًا على الدرسِ حرصًا شديدا
وكنت - كما تذكرون - فقيرا
وإن كان قلبى حكيمًا رشيدا
أرى الشعر مالاً وكَنْزَ النُّهى
غدوتُ به مُؤْمِنًا وسعيدا
أُرَدِّدُ ما قاله الأولونَ
وأَضْحَى لَدَىَّ غرامًا فريدا

وكنتُ إذا اللَّيلُ حلَّ انْثَنَيْتُ
لأقرأَ شعرَ القُدامى وَحِيدَا
وأُحْيِيهِ فى خاطرى مُستعيدا
زمانًا غَدَا طارفًا وتليدا
وأمّا الحوادثُ حولىَ فكانت
صَدَى بَارِحٍ وقديمًا جديدا
تلاشت حدودُ الليالى فكانت
كنهرٍ يسيلُ دوامًا مديدا !

(١١)

وكان لدينا غلامٌ عجيبٌ
يُردّدُ ما لَذَّ من أغنياتْ
نشيطًا مجدًا وعَذْبَ الحديثِ
حريصًا على الصّدقِ جَمَّ الثباتْ

ويحكى الحكاياتِ عَمّن تولّى

من الأولياءِ ذوى المعجزاتْ

يُرّددُ أشعارَهُمْ والوَصَايَا

وما قد رَوَتْهُ عيونُ الثِّقاتْ

وكنتُ أحارُ لسحرِ اللُّحونِ

كنبعٍ من النفس صافٍ فُراتْ

وكنا نلاقى الصحابَ جميعًا

بِظَهْرِ المدينةِ فى الأمسيات

فَرُحْتُ أُسائلُ ذاكَ الغلامَ

عن السّر فى هذه السانحاتْ

فقال بدهشة من يتأسّى

لِجَهْلِىَ : "من عند ست البنات !"

(١٢)

وأَدْرَكْتُ أن الفتاةَ نظيمةَ
مصدرُ وَحْيِ الغلامِ الصغيرْ
فتابعتُ أخبارها من بعيدٍ
وما كنت آنئذٍ بالخبيرْ
وكُلُّ الذى جاءنى عندها
نُثَارٌ من القول غيرُ كثيرْ
ومُجْمَلُهُ أنّ تلك الفتاةَ
تخافُ من الدَّهْرِ سوءَ المصيرْ
فليستْ بذاتِ جمالٍ وحُسْنٍ
وليستْ بذاتِ ثراءٍ وفيرْ
وكنا نرى بعض إِخْوَتِهَا فى

رشـيـدَ بمظهـرِ عُـدْمٍ مـريرْ
يعـانون مـا يَعْـرِفُ الأغنيـاءُ
وليسَ يعـانيـه إلا الفـقـيـرْ !
وكـانت تَخَطّتْ سنينَ الزواجِ
ولم يَسْـتَـجِبْ للدُّعـاءِ القـديرْ !



النشيد الثانى

(١٣)

تركتُ رشيدَ - كما تذكرونَ -
بُعَيْدَ الطفولةِ للقاهرهْ
وكنتُ كمفتونِ شعرٍ فقيرٍ
أعبُّ مشاهِدَهَا الساحرهْ
أرى فى المبانى وفى الطُّرقاتِ
مآثرَ فاتنةً آسِرَهْ
وأحيا حياتى بأَرْوِقَةِ النُّورِ
وَسْطَ رُبَا الأَزْهَرِ الزّاهِرَهْ
وألتمسُ العِلْمَ كُلَّ صَبَاحٍ
وتحتَ قناديلِها السّاهرهْ
أرومُ شبابَ الزَّمانِ القَديمِ
وأنشدُ أيامَهُ الغابِرَهْ

أرى فيــه مـعنى الحـيـاةِ إذا مـا
أُتيحَ انطلاقُ الرُّؤى الغــامِــرهْ
فـعـدتُ إلى الشّـعـرِ والوَحْيِ فى
كلّ ركنٍ بقــاهرتى الشــاعِـرَهْ !

(١٤)

نســينا نظيـمـةَ يا صـحبُ سَـهْـوًا
وذلك فى الســرْدِ عـيبٌ وهَـفْـوَهْ
ولكننى الآنَ راوٍ عــجــوزٌ
يحـاولُ أن يغـفـرَ الناسُ سَـهْـوَهْ
وأمــا الحــديثُ عن الآخــرينَ
فـذنبٌ وأرجـو من الله عَـفْـوَهْ
كـعَـثْـرَةِ أقـدامِنا حين نَكْبُـو
وننهضُ ناجينَ من كُلِّ كَـبْـوَهْ

وما الذكرياتُ سوى تيهِ كُلِّ
عجوزٍ وأعمقِ جُبٍّ وهُوَّهْ
هى الوهمُ يَرْسُمُ فى كُلِّ حِينٍ
من القَفْرِ خِصْبًا وعِزّاً وثَرْوَهْ
يُشَتّتُ فى الذهن أَلحانَهُ
وينبو بأفكاره كل نَبْوَهْ
وها أنَذَا فى غِمَارِ الحديثِ
أعودُ إلى مَوْجِ بَحْرِى بقُوَّهْ !

(١٥)

أتانى صديقِى المُغَنِّى الصغيرُ
وقد صار شابًا ليطلبَ قَرْضَا
ولم أكُ أَمْلِكُ مالاً وفيراً
ولكنْ رأيت المعونةَ فَرْضَا

وكـــان بـه مــــثلُ هَمٍّ دفينٍ
يكادُ بأن يَطْرَحَ الخِلَّ أَرْضَـــا
وأَلْحَـحْتُ حـتى يَشيِ بالهـمومِ
فـأبدى التَّـرَدُّدَ حـينًا وأفضى
وقـال لقـد جـاء بيتَ الفـتاةِ
خطيبٌ ويملكُ حـقـلاً ورَوْضَـا
ويعـرضُ مَـهْرًا كـبـيرًا ودارًا
ويُغْـرِي النواظرَ طولاً وعَـرْضَـا
وكـان بَشُـوشًـا جـمـيلَ المُحَيّـا
فلم تَمْلِكْ البنتُ للكَهْلِ رَفْـضَـا
وأَمَّـا الفـؤادُ فلم يُبْـدِ حُـبّـاً
وأمـا اللسـانُ فلم يُبْـد بُغْـضـا

(١٦)

وَلَمْ أَرَ فيما حكَىَ عن نظيمةَ
أىَّ ماسٍ تهزُّ الصدورْ !
فأىُّ زفافٍ لمن تتخطى الشبابَ
ببلدتنا مصدرٌ للسرورْ !
وحتى إذا كان كَهْلاً تَصَابَى
ففى الحُبِّ بعثٌ له أو نُشُورْ !
وما دام فى الكيسِ مالٌ وفيرٌ
فكأسُ الغرامِ بمالٍ تدورْ
وكنتُ أظنُّ الزواجَ بشائرَ سعْدٍ
وليسَ به مأثمٌ أو شرورْ !
وساءلتُ خِلىّ الصغيرَ فكيفَ
تَأَتَّى لحزنٍ به أن يثورْ ؟

فــقـــال أَمَـــا كنت تعلمُ حـــقًّـــا
بـأنّ الحــيــاة مــتـــاعُ الغــرور ؟
فـهــلاّ اسـتـمـعـتَ لما ســوف أحكى
وهـلاّ غَـفَـرْتَ مناحى القـصــورْ ؟

(١٧)

وقال صديقى لقد كان أيوبُ زوجًا عجيبًا
يحبُّ الحياةَ ويرجو من الله خيرَ النّماءْ
وكانت له زوجةٌ قد أَتَتْ بالبنينِ
فكانَ شكورًا لفضلِ السماءْ
وكان بنوهُ دؤوبينِ فى الحَقْلِ لا يعرفونَ الكَلاَلَةَ
وَهْوَ بِهِمْ يستزيدُ العَطَاءْ
وأما جميلةُ أُمُّ البنينِ
فكانتْ تُفَاخِرُ بالحُسْنِ كُلَّ النِّساءْ

وتَقْضي الصباحَ تؤكّدُ ما زَانَها من فُتُونٍ
وتأتى بما لم يَكُنْ من بَهَاءْ
وكانت تُحِسُّ بأن الزواجَ بتلك 'النظيمهْ' -
بلاءٌ من الله أىُّ بلاءْ
(وليس يُمَثّلُ إلاّ الفَنَاءْ !)
ولكنّها مثل بعضِ النّساءِ تكتَّمَتْ الغِلَّ كالأقْوِيَاءْ
ورَاحَتْ إلى الجِنِّ تشكو الزمانَ
وتطلبُ ثأْرًا لها فى الخَفَاءْ !

(١٨)

وأَصْغَى حقيرٌ من الجِنِّ للوَسْوَسَاتِ بِوَكْرِهِ
وكان التَّضَرُّعُ للجِنِّ فُرْصَةَ عُمْرِهْ !
فقد كان يَبْغِي التَّقَرُّبَ زُلفى لإبليسَ حتّى
يكافئه أو ليعلوَ بِقَدْرِهْ

فقال لربِّ القَبيلِ الأثيمِ سأُنْزِلُ بالزَّوْجِ

كُلَّ بلاءٍ يحطِّم إيمانَهُ أو يجئُ بِقَبْرِهْ

فَنَكْسبَهُ بين شَرِّ البَرَايَا

إذا ضاقَ ذَرْعًا ونَاءَ بِدَهْرِهْ

هُوَ الآن يَشْكُرُ خالقَهُ ، والملائكُ

فى كُلِّ صُقْعٍ تقولُ بِشُكْرِهْ

ولكنّنى سوفَ أُلْقي عليهِ بداءٍ غريبٍ

وليسَ يُعَالِجُهُ غيرُ صَبْرِهْ

وما ذاكَ إلا نُضُوبُ المَعِينِ

وجدبُ الرياضِ نذيرًا بِفَقْرِهْ

سيعرفُ ذُلَّ السؤالِ ، وهَمَّ الدُّيونِ

يُنَغّصُهُ فى خَفَاهُ وجَهْرِهْ !

(١٩)

وكان الملاكُ المكلَّفُ ذاكَ المَساءَ بدورِ الرِّقَابَةِ
يسمعُ هذا الحوارَ الأثيمْ
فأُهْرَعَ من فَوْرِهِ للّذى فَوْقَهُ كىْ
يَرىَ ما عَسَاهُ يكونُ إذَا صَحَّ عَزْمُ الرَّجِيمْ
وكان الذى فَوْقَهُ باسماً
يسبّح للهِ ربِّ الوجودِ الكريمْ
فَأَصْغَى وقال ببسمتهِ لا تَخَفْ !
هل اجْتَزْتَ أجوازَ هذا الفَضاءِ لتُبْلِغَنى أمْرَ هذا الزَّنِيمْ ؟
ألا تَعْلَمَنَّ بأن الذى يَنْتَوِيهِ الحقيرُ
ابتلاءٌ لأيُّوبَ من عِنْدِ رَبٍّ عليمْ ؟
فإنْ صَبَرَ العَبْدُ والْتَزَمَ الشُّكْرَ كان الأثيرَ
بِعَفْوِ الغفورِ الحَلِيمْ

وأمّا إذا ما تَمَرَّدَ أو فَقَدَ الصَّبْرَ
فالأمْرُ فى يَدِ أَسْمَى حَكِيمْ
فَعُدْ لمكانكَ واصْدَعْ بأَمْرِكْ !
فليسَ يجادلُ فى أَمْرِهِ غيرُ غِرٍّ غَشِيمْ !

(٢٠)

وقال الملاكُ حنانَيْكَ لمْ أَعْصِ أَمْرًا
ولكنّنى دَهِشٌ لا أَبِينْ !
وأَقْصِدُ أنّ ابن آدمَ سوف يُعانى
بِوَحْشَتِهِ ما له من مُعِينْ
جميلةٌ حَادَتْ خُطَاهَا وحَالَفَتْ العَاصِيَاتِ
وأيوبُ فى يَدِها مُسْتَكِينْ
وكيفَ به لا يُحِسُّ الخِدَاعَ
وكيفَ يكونُ من الغَافِلِينْ ؟

فهلاّ سَمَحْتَ بأنْ أُرْشِدَ الغِرَّ لِلْحَقِّ
حتى يجاوزَ جَدْبَ السنينْ ؟
وأعرفُ أنَّ الملاكَ المُطِيعَ
لهُ عملٌ فى مَراقِي اليَقينْ !
وقال الملاكُ الكبيرُ عليكَ بِزَوْجَةِ أيوبَ
(أعنى نظيمةَ) فاذهبْ فأنتَ عليها أمينْ
إذا انحطّ كلُّ البرايَا وذَلّ بِظُلْمِ الحياةِ العزيزُ
فإنّ قَنَاةَ نظيمةَ ليستْ تلينْ !

(٢١)

وعاد الملاكُ ليشهدَ ما حَزَّ فى نَفْسِهِ أنْ يراهُ
نضوبَ المياهِ بأملاكِ صاحِبِنا أَجْمَعَا !
وما لَبِثَ الحَقْلُ أن صار قَفْرًا
وكلُّ الرياضِ غدَتْ بَلْقَعَا

وحارَ الملاكُ لِسُرْعَةِ ما قد أَتَاهُ الحَقِيرُ
وشَرُّ البَلِيَّةِ ما أَسْرَعَا !
وقال لأَبْدَأْ بتثبيتِ قلبِ نظيمةَ
لا يَجْمُلُ اليومَ أَنْ تَجْزَعَا !
وها هو يأتى بِحُلْمِ انْحسارِ البلاءِ كأَصْدَاءِ هَمْسٍ
ويَرْجُو من الله أن تَسْمَعَا
وظَلَّ يُسَبِّحُ للحقِّ حتى قُبَيْلَ الشروقِ
وأَلْوَانُهُ فى السَّمَا لُمَّعَا
وماَجَتْ بنفسِ نظيمةَ أَلحانُ ذاكَ الملاكِ
فكادتْ بها العينُ أن تَدْمَعَا
وقامت تُلَمْلِمُ أشتاتَ حُلْمِ الملاكِ
وما نَبَذَ الذهنُ من خَلْطِهِ أو وَعَى !

(٢٢)

وردَّدَ أهلُ رشيدَ نُثَّارَ الحديثِ عن الجَدْبِ فى
أَرْضِ أيوبَ بَعْدَ الجَفَافِ وسَمْتِ الخَرَابْ
وقالوا تُرى قَارَفَ المُوبِقَاتِ
وما يستحقُّ صنُوفَ العَذَابْ ؟
وإلا فكيفَ غَدَا ماؤهُ
شَحِيحًا وكلُّ بَريقٍ سَرَابْ ؟
لقد كان فى الجَهْرِ شهمًا شريفًا
نُسَمِّيهِ بالحقّ زَيْنَ الشَّبابْ
فهل ثَمَّ سرٌّ ولَسْنَا بِهِ عارفينَ
أحالَ الرياضَ قِفارًا يَبَابْ ؟
وكدتُ أسائلُ مُلْهِمَةَ الشّعْرِ والأُغْنياتِ
عن الحقّ فيما عَنِ العَيْنِ غابْ

فَأَنْبَتَ شَوْكًا مكانَ الزُّهورِ
لِيَسْقِيهِ مُرًّا بديلَ الرُّضَابْ
ولم أَكُ أدركتُ طَوْرَ الرِّجَالِ
فَلَمْ أَرَ فى مَسْلَكِي ما يُعابْ !

(٢٣)

وَقَفْتُ لدَىَ دارِ أيوبَ وَحْدِى طويلاً
كأنّى أحادثُ بعضَ الدِّمنْ
وأشهدُ أطلالَ عِزٍّ تليدٍ
وأمجادَ عُمْرٍ مَحَاهَا الزَّمَنْ
أُسَرِّحُ طَرْفى بِعرْشٍ تهاوىَ
وهَبَّتْ عليه رِيَاحُ المِحَنْ
وجَاشَ فؤادِى بِلَحْنٍ حزينٍ
وكدتُ لِوَطْأَتِهِ أنْ أُجَنّ

وبعد طَويلِ حنينٍ لصوتِ الفَتَاةِ
ويا طولَ ما كنتُ للنَّغَماتِ أَحِنّ
تحوّل وَجْهي عن الدَّارِ نَحْوَ رمالِ رشيدَ
أحاولُ تعزيةَ النَّفْسِ فى صَمْتِها عَنْ حَزَنْ
وكانَ كذلكَ دَأْبُ الصِّبا
وكنتُ شغوفًا بهذا السَّنَنْ
فكمْ ساخَ فى مَوْجِ تِلْكَ الرِّمَالِ
قَوِيٌّ يَدِبُّ وشيخٌ وَهَنْ !

(٢٤)

ويعلمُ ربّى مدَىَ ما تَأَلَّمْتُ فى وقفتى
أشاهِدُ ما كادَ دَهْرِىَ أن يَخْسِفَهْ
كأحلامِ شِعْرٍ غَذَتْهَا الفَتَاةُ
فباتَتْ تَئِنُّ بأيدِى الغَدِ المُجْحِفَهْ

وما قد حَفِظْتُ بألحانها
فكانَ لى العِلْمَ والمَعْرِفَهْ
تطوفُ بذهنِي مشاعرُ وَهْمٍ مريرٍ
وتُلقى بأسئلةٍ مُلْحِفَهْ
وتبعثُ شيطانَ شِعْرٍ جديدٍ
أَبَى عَقْلِيَ الجادُّ أن يَصْرِفَهْ
ليوحيَ بالسوءِ – سوءِ المآلِ –
فأقوالُه كلها مُرْجِفَهْ
ويُسرِفُ فى وَصْفِ ما كابَدُوهُ
وكلُّ تصاويرِهِ مُسْرِفَهْ
وقَبْلَ انطلاقِي لمحتُ ابن أيوبَ (أكبرهم) قادماً
ويحملُ فى يَدِهِ أَرْغِفَهْ !

(٢٥)

تبدّى الشحوبُ على وَجْهِهِ
ومَحْلُ اللَّيالىِ بجسمٍ نَحِيلْ
وعينٌ بَدَتْ كالزجاجِ اليَبِيسِ
خلَتْ من بَريقِ الضّياءِ الأصيلْ
بِمِحْجَرِهَا ثَبَتَتْ فى بُرُودٍ
يُجمّدُ أىَّ دُمُوعٍ تَسِيلْ !
رَنَوْتُ إليهِ وقَارَبْتُهُ
فأدركتُ فيه سِماتَ العَلِيلْ
ولم يتكلمْ ولكنّهُ فَتَحَ البابَ ثم اخْتفَى
وفى رِعدةِ اليد ذُلُّ الذَّليلْ
ودونَ انتظارٍ وجدتُ نظيمةَ باسمةً فى حياءٍ
لدىَ البابِ تدعو 'شُوَيْعِرَهَا' للدُّخولْ !

ولم أَتَرَدَّدْ لأنّ المكانَ يكادُ يكونُ مكانِى
سمعتُ به كُلَّ لَحْنٍ جميلْ
وفى رُكنِ 'منظرة' البيتِ كان الهزيلُ
أجل ! كانَ أيوبُ يقبعُ مثلَ الحَمِيلْ !

(٢٦)

وأَوْقَفْتُ مجرىَ الحديثِ لأسألَ عَمَّا
جَرَى لجميلةَ بَعْدَ زَوَالِ النعيمْ
وكيفَ تَلَقَّتْ مصيرًا رَجَتْهُ لأيّوبَ
حتى يُسَاقَ بهِ لِعذابٍ أليم ؟
وهل شكَرَتْ حينَ حَلَّ الخرابُ جُهُودًا
لإبْليسَ يَرْقَى بها فى مَرَاقِى الجَحيمْ
وكيفَ تَحَمَّلَتْ الضَّنْكَ وَهْىَ التى ما
رَأَتْ عند أيوبَ إلا الهَنَاءَ المُقيمْ

فـقـالَ بـحـزنٍ جـمـيلةٌ غـانيـةٌ كـالزمـان

وهـل لـلـزمـــان عـــهــــودٌ تـدومْ ؟

لقـد كـانت الصّفْوَ عند صَفَـاءِ السّمـاءِ

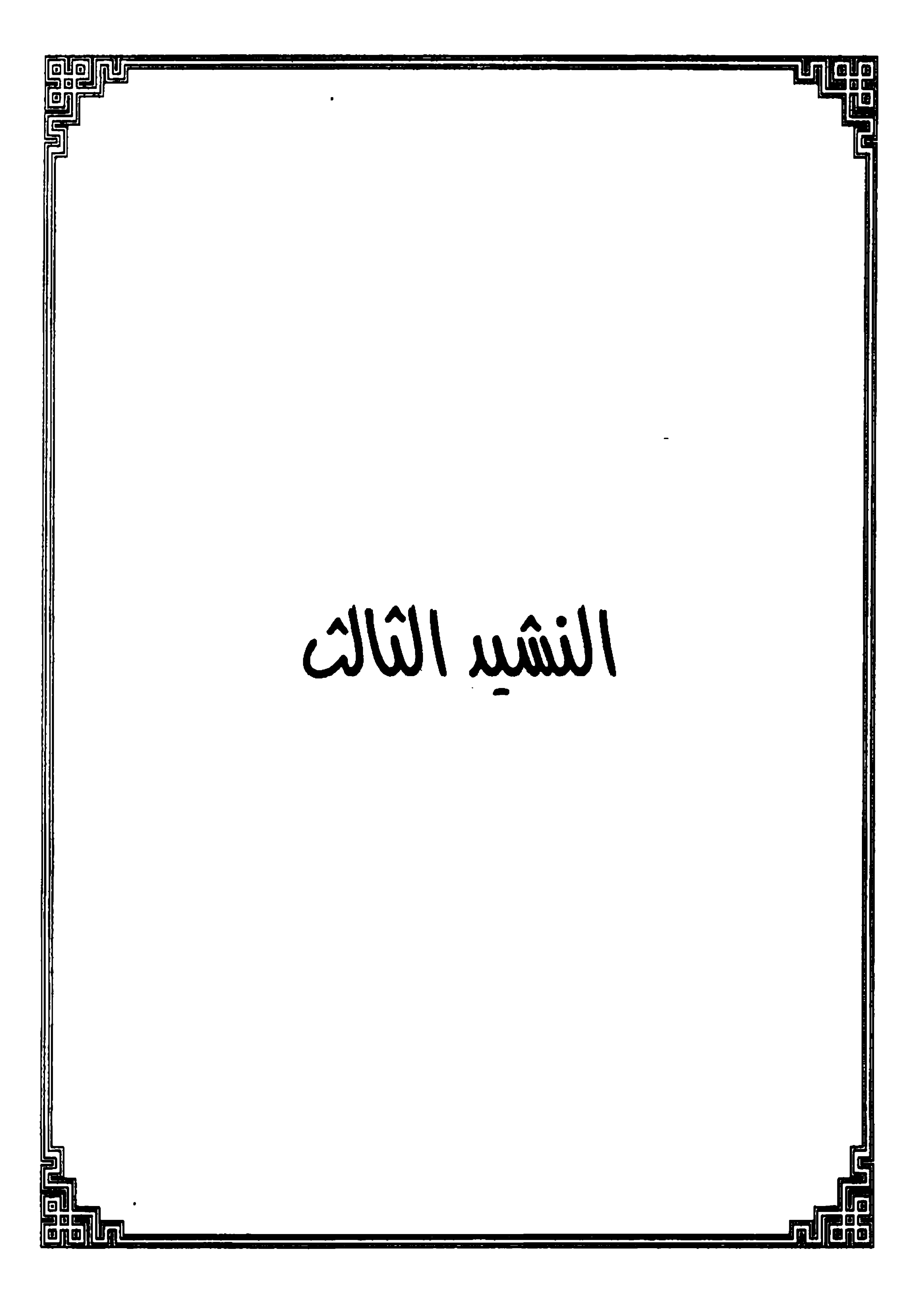
وحلَّ التلبُّــدُ عند حُلولِ الغُــيـــومْ

دَعَتْـهُ لتطليقِـهَا فـاسـتـجـابَ مُطِيـعًا

كمن كـان يَفْصِـدُ عِرْقَ الزمـانِ القـديمْ

تـألّم ســاعَــتَـــهـــا ثم أَجْـــهَشَ لكنْ

تَـحَـمّلَ توديعَـــهـــا باصطبـارِ الحَليمْ



النشيد الثالث

(٢٧)

تَأَمَّلْتُ مـــا قَصَّ خِلِّي وقُلْتُ
وهَلْ ذَاكَ حَـــتْمٌ بكلِّ زمـــانْ
هل الغَـدْرُ من طَبْعِ كل البَـرايَا
أم الغَــدْرُ يَفْــرِضُــهُ الحَـدَثَانْ
وقلتُ لنفـسى فكيفَ استَطَابَتْ
جـمـيلةٌ بالأمْسِ هَجْـرَ المكانْ
وكــيفَ تخلَّتْ عن الأوْفــيــاءِ
وهم يَتَـسـاقَوْنَ كـأسَ الهَـوَانْ
وكنتُ تخطَّيْتُ طَوْرَ الشَّـبــابِ
ومـــازِلْتُ غِـــرًّا بَرِئَ الجَنَان
وكــان صـديقى يحـادِثُ قَلْبًـا
رَضِــيـعًـا غَذَاهُ لَبـَانُ الحَنَانْ

فــهلْ يُفْطَمُ المرءُ حينَ يُفـاجِـئُـهُ

الـشَّـــرُّ بـالـرُّمْحِ حَــادّ الـسِّنانِ

لِطَعْنَةٍ من يتــوقّعُ حَـــرْبًا

ولم تَكُ لـى خِــبْــرَةٌ بالطِّعَــانْ

(٢٨)

تساءلتُ في خاطرى عن جَميلهْ

وقد ذاَعَ عنها جميلُ السَّجَايَا

وكنتُ سَمِعْتُ بها ثم شاهدتُها

ذاتَ يومٍ بِفَــجْــرِ صِــبَــايَا

بوجــهٍ مليحٍ وخُــضْــرِ عُـيُـونٍ

وبَسْمةِ سِحْرٍ غَذَتْها الثَّنايا

تَتِيهُ بخـصْـرٍ دَقـيقٍ نَحـيلٍ

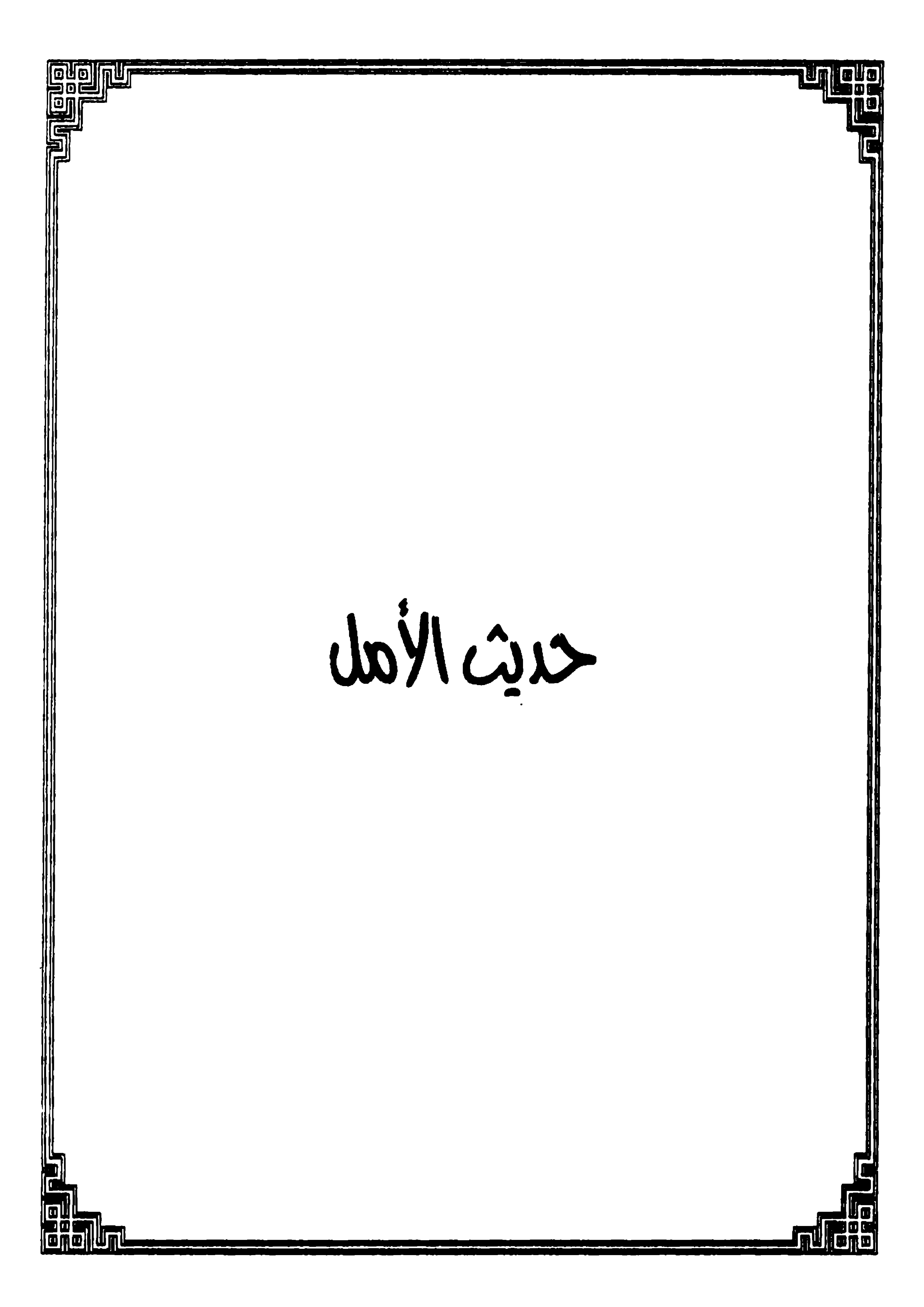
وقَــدٍّ يميسُ بمـا فــى الحَنَايَا

ألم يُعْطِهـــا الدهرُ كلَّ الذى
يَضِنُّ به بين تلك البـــرايا
كساها الجَمالَ وفَرْطَ الفُتُونِ
عـوارىَّ يَمْنَحُـهـا للصَّـبـايا
فـمـا سَـمِـعَتْ قـولَ أىِّ حكيمٍ
يطالبُـهـا باتّبـاعِ الوَصَـايَا
ولكنّهـا كَـفَـرتْ كـالكَنُودِ
وأنْكَرَتْ اليـومَ كُلَّ العَطَايَا !

(٢٩)

وعُـدْتُ إلى الخلِّ أسـألَه أن يقصَّ
حـديثَ نظيـمةَ عَـمَّـا جرىَ
فـأطرقَ في شَـجَنٍ سـاعـةً ثم قـالَ
سَيُذْهِبُ هذا الحديثُ الكَرَى

إِذِ انْطَلَقَتْ تتـغنّى بعـدلِ السـمـاء
وحِكْمَتِها في شـؤونِ الوَرَى
وفـى الحـالِ قَـصَّتْ عَلَيَّ المنامَ الذى
رَأَتْ فـيـهِ كـيـدًا لَهَا دُبِّرا
كـأنّ نظيـمـةَ قـد سَـمِـعَتْ للمـلائكِ
بالأُذْنِ فـى خَطَراتِ السُّرىَ
فكانت لهـا الروحُ أُذْنًا سَـمُـوعًـا
وكـانَ لهـا القلبُ عـينًا ترىَ
وبعـدَ قليلٍ أتت بالرَّبَابِ الجـمـيلِ
وغَنَّتْ لنا اللَّحْنَ مُسْتَبْشِرًا
سـأُنْشِـدُ بين يَدَيْكَ لُحـونًا أَتَتْـهـا
لتدعُو المعذّبَ أن يَصْبِرَا :



حديث الأمل

(٣٠)

(أ)

تسـاءلْتَ يا طَالِبًـا لليَـقينْ
عن السِّـرّ فى دَوَرَاتِ السّنينْ
وعَنْ غِـيَـرِ الدَّهْر حين يُوَلّى
وعـمـا يُصـيبُ به المؤمنينْ

(ب)

زَعَمْتَ لنفسكَ عـقـلاً فـريدا
وذِهْنًـا تُريدُ لـه أن يَسُـودا
وفِكْرًا تَملَّكَ هـذا الوجـودَ
وتَرْجُـو له جَـاهِدًا أن يزيدا

(جـ)

فَـهَـلاّ تَسَـاءَلْتَ عند الغَسَقْ

عن النورِ فى الشرق كيف انْبَثَقْ
وعن حُمْرَةٍ فى طُيوفِ الأصيلِ
ولَوْنِ البَنَفْسَجِ عند الشَّفَقْ

(د)

وهَلاّ تَسَاءَلْتَ عن كُلِّ نَسْمَهْ
تَهُبُّ بِصَيْفٍ حَرُورٍ كَبَسْمَهْ
تُصَوِّرُ فى النَّفْسِ ما رُمْتَهُ
وتَرْسُمُ فى القَلْبَ ما شِئْتَ رَسْمَهْ !

(٣١)

(هـ)

وهلاّ تَسَاءَلْتَ عن شَادِيَاتْ
بَكَرْنَ بِصُبْحِ الوَرَى غَادِيَاتْ
غَدَوْنَ خِمَاصًا وعُدْنَ بِطَانًا

وهُنَّ بِجَـوْ السَّـمـاَ شَـاكِـراَتْ

(و)

وهلاّ تَسـاءَلْتَ عن مَـاءِ بَحْـرٍ
تَغَـذَّىَ من العَـذْبِ فى كُلِّ نَهْـرِ
ولكنّه مـــثل مِلْحٍ أُجـــاجٍ
تَـــزيِـدُ مَـــرَارَتُه كُـلَّ مُـــرِّ

(ز)

تَأَمَّلْ ظَلاَمًـــــا بِلَيْلٍ طَـويلْ
ولَيْسَ بِهِ غـــيـــرُ نَجْمٍ عليلْ
ألا تسمُع الآنَ فى الصَّمْتِ صَوْتًا
يَشـىِ بِصَـبَـاحٍ بهِـيجٍ جَـمِـيلْ

(ح)

فهاأنذاَ أَسْمَعُ الصّوتَ هَمْسَا
يكادُ بأنْ يَلْمَسَ القَلْبَ لَمْسَا
يُؤَكّدُ أنّ الصباحَ قَريبْ
وأنّ سَوادَ الدُّجَى ليسَ رَمْسَا

(٣٢)

وأحسستُ فى كُلِّ نبضٍ بقلبى
كأنّى أنا صاحبُ الكلماتْ
وقلتُ نظيمةُ ربةُ شِعْرٍ
لها منطقٌ دافقُ النَّغَمَاتْ
يثيرُ الخيالَ ويغذوُ الجَمَالَ
ويبعثُ بالِبشْرِ والبَسَماتْ

وينفى الهُمُومَ بإيمانِ رُوحٍ

تُبَدّدُ أنوارُها الظُّلُمَاتْ

وأَحْسَسْتُ أن نظيمةَ كانتْ

تَعُدُّ الوفاءَ من الحُرُمَاتْ

فَأَحْرُفُهَا صادقاتُ التغنّى

بحبلٍ من اللّه معتصماتْ

ولم تَبْغِ سوءًا بأى عَدُوٍّ

وما بَدَتْ اليومَ منتقماتْ

ولم تَكُ إلا دعاءً كريمًا

من القلب يستنزل الرحمات

(٣٣)

ولكنْ تُرى هلْ أشارتْ بطرفٍ خفىٍّ

إلى من يسائلُ عن عَدْلِ ربٍّ رفيعْ ؟

أكـانتْ نظيـمـةُ أَمْ كـانَ أيوبُ يومًـا
يَظُنُّ الظُّنونَ بِرَبٍّ الوجـودِ البَـديعْ ؟
وقلتُ لنفـسى لأَطْرحْ عليـهِ السُّؤَالَ
كـأنّى أسـائلُ نَفْسِيَ مـثل الجـميعْ !
ويا عجَبًا ! قـالَ أيوبُ سبـحانَ رَبّى !
وكـيفَ أشكُّ بربٍّ حكيمٍ سـمـيعْ ؟
وحــاولَ أن يَنْهضَ الآنَ منْ ركْنِهِ كـىْ
يُعَـبِّـرَ عـمّـا أَتَى قَلْبَهُ من خُشُوعْ
فَـخَـانَتْـهُ أَقْـدَامُـهُ فـجـأةً ثُم قـالَ
وفى العَـيْنِ تَبْـرُقُ كـالدُّرّ بعضُ الدُّموعْ
لَقَـدْ بِعْتُ يا صَـاحِ كُلَّ الذى فى يَدِى
ولم يَبْقَ مـا قـد أُقَـايَضُ أو مـا أبيعْ !
ولكنّنى مـؤمنٌ بالنَّجَـاةِ ولو جُـعْتُ دَهْرًا

ومـــاذا يُضِـــيرُ الفَــتَى أن يَجُــوعْ ؟

(٣٤)

وقال لقد كنتَ أَوَّلَ من زَارَنَا
من الصَّحْبِ منذُ ازْوِرَارِ الزَّمَانِ العَجيبْ !
فأكثرُ ما يحزنُ النَّفْسَ هجرُ الأحبةِ أو قُلْ
جُحُودُ الذى كان عندكَ يومًا حبيبْ !
تُرى أينَ وَلَّى الصحابُ وكيف لَوىَ الناسُ
أَوْجُهَهُمْ بل وحتى القَريبْ ؟!
لقد كان مَنْزِلُنَا نُزْهةً للعُيونِ
ويرتادُها الكُلُّ حتّى الغَريبْ !
وها أنتَ تأتيِ وأنتَ الصَّبِىُّ
فَتَكْسرِ طَوْقَ جفَاءٍ رهيبْ
ولولا نظيمةُ ما زُرْتَنَا - أو لعلّى أقولُ -

إذا لَمْ تَكُنْ مُغْرَمًا بالغناءِ دؤُوبْ !
ولستُ أجادلُ فى أنّ حُزْنًا أصَابَكَ
مما سمعتَ عن البُؤْسِ فى بيتِنا والنَّحيبْ
ولكنْ تأكدْ - صديقى الصغيرَ - بأنّا هُنا مؤمنون
وإيمانُنا صادقٌ لا يَخيبْ !

(٣٥)

وَمَرَّتْ لَيالىِ وأيامُ ذاك الشتاءِ
بلا موقدٍ يَصْطَلُونَ بِهِ أو غِذَاءْ
سوى ما يَجُودُ به الصالحونَ
على فَقْرِهِمْ (لا نَدَىَ الأغْنياءْ)
وعند حُلولِ الربيعِ (وكُنّا بآخرِ شَهْر الصِّيامِ)
رأيتُ نظيمةَ فى الجُرْنِ وَسْطَ الفِنَاءْ
وكنتُ إذا ما انتهى الدرسُ أَقْصِدُ جُرْن الحبوبِ

بشرقِ المدينةِ عند الخلاءْ
لأجمعَ ما كان من كَسْرِ أُرْزٍ
لإطعامِ أفراخِنَا فى المَسَاءْ
عجبتُ لمرأىَ نظيمةَ فى الجُرْنِ وَهْىَ تَمِيلُ
على بُقْعَةٍ قد كسَاهَا الهَبَاءْ
تُقَلِّبُ فيها كَمَنْ يَبْتَغِى الأُرْزَ مِثْلِى
وتُقْعى مُحَدِّقَةً فى الهَوَاءْ !
تَأَمّلْتُ ما نَبَشَتْ باليَدَيْن فَلَمْ أَرَ شيئًا
جَدِيرًا بِنَبْشِ الثَّرى فى عَنَاءْ !

(٣٦)

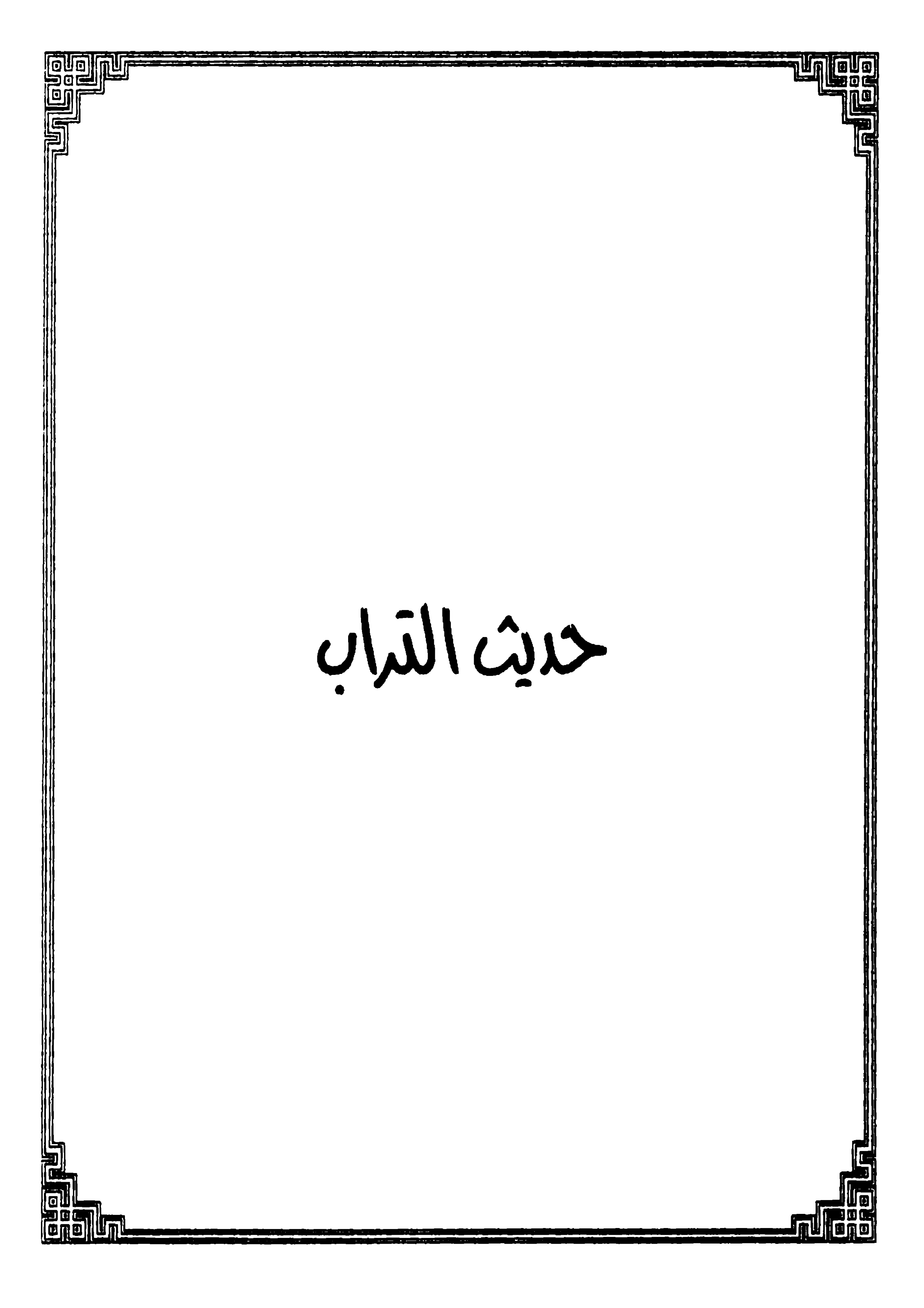
تَسمَّرْتُ فى مَوْقِفِى جَامِدًا
وقد أَذهبَ النُّطْقَ عنّى العجبْ
وكاد الفضولُ يحثّ لسانى

لأســـألَهــا مــا يكونُ الطلبْ
ولكننى اخــتــرتُ بعضَ التَّمــهُّلِ
بالصّبــرِ تَقْـضِى حُـدُودُ الأدبْ
وحـين الـتـــــفتُّ إلـى الأُفْـقِ
أدركتُ أن الغُــروبَ اقـــتــربْ
وأنّ السـحـاباتِ تجرى سراعًـا
وتُخْــفى رياحًــا خِــفَـافًـا تَـهُبّ
وخِـفْتُ الغُــبـارَ ربيبَ العِــثـارِ
إذا عَـصَـفَتْ أىّ عَـصْفٍ تَرِبْ
وكــانت نظيــمــةُ ثابتــةً لاتريمُ
كمن يسـأل الأرض عمّا احتجبْ
فناديتــهــا خَــوْفَ تلكَ الرياحِ
كطفلٍ كــفــاهُ المســاءُ اللَّعِبْ !

(٣٧)

فــقــامت نظيــمــةُ ذاهلةً فى عَنَاءٍ
كــمن يتــهــاوَىَ لِفَــرْط اللَّغَبْ
نظرتُ إليــهــا وذَكَّــرْتُهَــا بالغــروبِ
كَــأنّى أحـــادثُ ضَــوْءًا غَــرَبْ
كــســاها الشــحــوبُ وحــتّى الرداءُ
بدا حــــائلَ اللَّونِ كـــالمكتـــئبْ
براها النحــولُ وأَخْلَقَ جِلْبَــابَهــا
فكانتْ كــمــثلِ الخَــيــالِ انتــصبْ
وكــان بعينِ نظيــمــةَ لمعٌ غــريبٌ
كــمن خَــشِيَ الغَــدَ المُرْتَقَبْ
فَــأَلْحَـحْتُ حــتى تُحَـدّثَ عـمّـا بهـا
وتكشفَ عــمـــا عــســاهُ الســببْ

فـقــالتْ بصــوتٍ خــفــيضٍ جــمــيلٍ
لقـــــد زارنى حُلُمٌ مُـــغْـــتــــصِبْ
وحَـــــــرَّضَنى أن أناجى التـــــراب
لأشـــــهــــد فــــيــــه هناءً سَــــرَبْ



حديث التراب

(٣٨)

وقالتْ سمعتُ بهذا الثَّرىَ
دبيباً يَطِنُّ طنينَ الذُّبابْ
وما لَبِثَ الصَّوْتُ أن صارَ لَفْظًا
يموجُ بأَلحانهِ فى اصْطِخَابْ
فَأَطْرَقْتُ مُصْغِيةً للهَديرِ
أرومُ المَعَانِىَ مِنْ كُلِّ بَابْ
وكانَ حديثُ الثَّرىَ باكيًا ضاحكًا
فقلتُ لَعَلّ بِأُذْنِى نَشيشَ اضطرابْ
ولكنّ كُلَّ الحروفِ استبانَتْ
فهلاّ عَلِمْتَ حديثَ التُّرابْ ؟
يقولُ لقد كنتُ لحمًا وعَظْمًا
جمالاً فريدًا وزَهْرَ شبابْ

وكنتُ أَتيهُ على الأَرْضِ جَمَّ الثَّباتِ
وَلَمْ أَرَ فوقَ البَسيطَةِ شيئًا يُهابْ
فخوراً ببأسِ الفُتُوَّةِ فى الساعِدَيْنِ
أكادُ لِزَهْوِى أَمَسُّ السَّحابْ

(٣٩)

وقال الترابُ لقد كنتُ غِرّاً
وأزهوُ بِوَجْهٍ صَبُوحٍ جَميلْ
بِجِسْمى تَضِجُّ الدِّمَا فى العُروقِ
بِفَوْرَةِ من وَثِقَ الدَّهْرَ ألا يَحُولْ
وأَبْغِى المَرَاحَ كأنّى سأَخْرِقُ أَرْضى
مِنَ الفَرْحِ لستُ أرى المستحيلْ
أُحِسُّ بِعُمْرى مَدِيداً طَلِيقًا
كَدَرْبٍ إلى أَبَدِ الآبدينَ الطَّويلْ

على جانبيه غصونٌ تَدَلَّتْ
وأزهارُه ليسَ تَدْرِى الذُّبولْ
به الدَّوْحُ تعلوُ ذؤاباتُهُ
تُشَارِكُها باسقاتُ النَّخِيلْ
وكنتُ أُحسُّ بأنّى بآفاقِ هذا الفَضَاءِ
كَنَجْمٍ أضاءَ ولَيْسَ يَخَافُ الأفولْ
وكيفَ أخافُ الأُفُولَ وبى عُنْفُوَانٌ
يُثَبِّتُنى فى السَّمَا لا أَمِيلْ !

(٤٠)

وذاتَ مساءٍ وبَرْدُ الشِّتَا نافذٌ
للعِظَامِ ظَلُومٌ غَشُومْ
لَمَحْتُ تكاثُرَ سُحْبَ السَّماءِ
وطَمْسَ بَوَارِقِ عُلْيَا النُّجُومْ

وغَامَتْ بِقَلْبِى رُؤَى كُلِّ شَىْءٍ

كَمَنْ غَشِىَ العَيْنَ مِنْهُ السَّدِيمْ

وخِلْتُ كأنّ بِنَفْسِى حَسِيساً

كَصَوْتِ احتراقِ حُطامٍ رَمِيمْ

تعجبتُ من وَقْدِ نارٍ بِبَرْدِ الشّتاءِ

ولا تَذَرُ الآنَ إلاّ الهَشِيمْ

وسَرْعَانَ ما صاح فى دَاخِلِى صائحٌ

برنّةِ حُبٍّ و وُدٍّ حميمْ

يقول بأنى أعُودُ تُرابًا

ولم يَبْقَ فى فُسْحَةِ العُمْرِ إلا الصَّرِيمْ

ولكنّ هذا التُّرابَ يعودُ فَيَحْيَا

بِيَوْمٍ عَظِيمٍ لبعثٍ مُقيم !

(٤١)

وتاهتْ عيونُ نظيمةَ فى الأُفْقِ 'يا عجباً'

'كيفَ جاءَ الجُنُونُ قرينَ العَيَاءْ !'

فمن ذا يصدقُ أنّ نظيمةَ

ذاتَ الحِجَا وعَظيمِ الذَّكاءْ

تُنَاجِى التُّرابَ وتَستَنْطِقُ القَفْرَ

حينَ يدورُ الزَّمَانُ ويأتى البَلاَءْ

وكيفَ أَتَى فى المنامِ المَلاَكُ

فجمّدَ فيها دَبيبَ الرَّجَاءْ ؟

وقلتُ لعلّ المُنَادِىَ عفريتُ جِنٍّ

يُدَبِّرُ للشَّرِّ فى ليلةٍ من عَمَاءْ !

فَسَاءَلْتُها عن حديثِ المنامِ

وفى القلبِ ما يعرف الأتقياءْ

فقالت ملاكٌ يُنَبّئنى بالمزيدِ

من الهَمِّ والغَمِّ فى بعض داءْ
كأنّ المنام يُخَيِّرنى بين راحةِ يوم الفناءِ
وآلامِ طولِ البقاءْ !

(٤٢)

وقـال الملاكُ قـد اجـتـازَ أيوبُ
مِـحْنَتَـهُ باقـتـدارٍ وصَـبْـرِ
وصَـبْـرَ ابن آدمَ مـربطُ إيمانهِ
بـالإلـهِ وآيــةُ شُـكْـرِ
يُحَـدّثُ بالصَّبْرِ عن ثِقَةٍ بالإلهِ
بِكُلِّ ثَبَـاتٍ وفَـخْـرِ
وكُنْتِ له يا نظيـمـةُ كنزاً
لذاك اليـقينِ وأثمنَ ذُخْـرِ
تَشُـدِّينَ من أزره كُلَّ يومٍ
وتَنْفِينَ أىَّ جنوحٍ لِكُفْـرِ

فباتَتْ عفاريتُ جِنّ جميلةَ
ذاهلةَ اللُّبِّ فى كُلِّ شِبْرِ
وسارَعَتْ اليومَ ترجو ابتلاءً
جديداً وتمكُرُ أَسْوَأَ مكْرِ
وتأتي بداءٍ عُضَالٍ شديدٍ
يَهُدُّ الصَّلابَةَ فى أىّ صَدْرِ !

(٤٣)

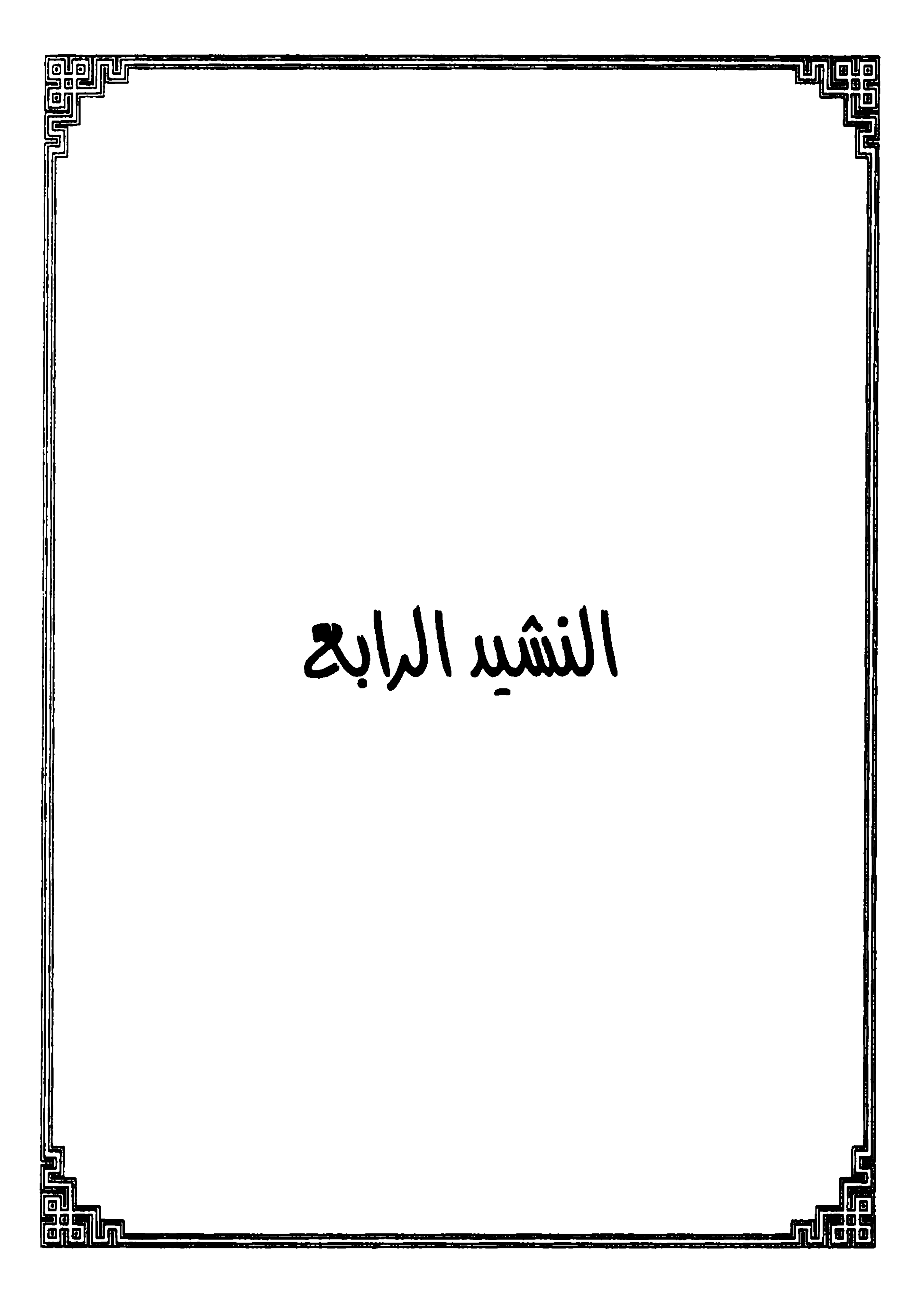
وذلكَ يا صاحبى ما سَمِعْتُ
بِأُذْنِي ولَيْسَ وليدَ الخَبَالْ
وألمحُ فى عَيْنِكَ الآن شكا
وخوفًا من الخُرْقِ صِنْوِ الضّلالْ
ولكننى مثل كُلِّ الحَيَارَىَ
وأَسْعَى لفَوْزٍ بعيدِ المَنَالْ
فكيفَ أُعينُ الفقيرَ الشَّقِيَّ

علـى سَــــقَمٍ مُنْذِرٍ بـالوَبَالْ ؟
وكـيفَ بِصَـبْـرٍ على يـأْسِـهِ
إذا ما أُصِيبَ بداءٍ عُضَـالْ ؟
وهل كان هَمْسُ التُّرابِ العجيبِ
من الوهم أو شَطَحَاتِ الخَيَالْ ؟
أليسَ حـديثُ التُّـرابِ الصَّـدوقِ
نذيراً يقـــولُ بِقُــرْبِ الزَّوَالْ ؟
ألا إن هَـمِّي ثقـــيلٌ ثقـــيلٌ
تنوءُ بِهِ راســياتُ الجِـبَـالْ !

(٤٤)

ولاحَ بعينِ نظيمةَ لمعٌ غريبٌ -
نذيرٌ بقربِ الضّرَامْ
وخِفْتُ اشتعالَ التّأسِّي المريرِ

وخِفْتُ الرُّؤَى وانفلاتَ الزِّمَامْ
فَأَطْرَقْتُ فى أَلَمٍ حائرًا
وَلَمْ أَسْتَزِدْ من حديثِ المنامْ
وإِذْ بالرَّذاذ تَسَاقَطَ من حَوْلِنَا
فَاتِرًا مثلَ دَمْعِ الغَمَامْ
وسَرْعَانَ ما جَاءَ صَوْتُ المُؤَذّنِ
يُعْلِنُ آَخِرَ شَهْرِ الصِّيَامْ
وأَسْرَعَتْ الريحُ فى مِثْلِ عَصْفٍ
يحثُّ المَسَاءَ وزَحْفَ الظَّلامْ
وكنتُ أَخَافُ شَآبيبَ ذَاكَ الربيعِ
وأَخْشَى شُرودَ الكلامْ
ولكننى يا أخى قد دَهِشْتُ إِذْ افْتَرَّ
ثَغْرُ نظيمةَ عمّا بدا كابتسامْ !



النشيد الرابع

(٤٥)

تَـوَقَّـفَ خِـلّـى وكـنـتُ أُتَـابِـعُ
مــا كــانَ ليلةَ عِــيـدٍ بَعِـيـدْ
وكنتُ تـركـتُ رشـيــدَ سـنينًـا
ولَمْ أَدْرِ مـاذا جَـرَى فـى رَشِـيدْ
وكنتُ أريدُ اجـتـلاءَ المَصِـيـرِ
فــهلْ هَدَّهُ اليــومَ داءٌ عنيـدْ ؟
وكــيفَ تـلقَّــاهُ أيوبُ - بالكُفْـرِ
أمْ باصْـطِبـــارٍ فَـــريدْ ؟
نظرتُ إلى صــاحـبى المتــأنِّى
وقـد صـارَ صـاحبَ رأيٍ سـديدْ
وآثـرتُ ألاّ أعــيــدَ الســؤالَ
وإن كنتُ حــقًــا أريدُ المزيـدْ
وبعـدَ السكوتِ وبعـد التَّـردُّدِ

قلتُ له إنّنى كـــالشّـــريدْ !
أعـيشُ بإلقـاءِ شِـعْرِى وأَشْـعُـرُ
فى بَـهْـمَـةِ اللَّيْل أنّـى وَحِـيـدْ

(٤٦)

وقلت لِخلىّ لقد كُنْتُ فى وَحْشَـةٍ
دونَ أُنْـسٍ ودونَ رَفــــــيقْ
وقَلْبِى مــشــوقٌ لأهلِ رشـيـدَ
ودِفْءِ الخليلِ وصـدقِ الصـديقْ
فــإنىّ أعـيشُ مع القُـدَمَــاءِ
بآثارِ مــاضٍ بعـيـدٍ ســحـيقْ
وفى ذاك تعــزيةٌ عن خَــوَاءٍ
وفَــقْــرٍ مــقـيمٍ وهَمٍّ وضــيقْ
وكل مـــســـاءٍ أُغَنّى الملاحمَ

لِلْحـــالِمين بمجـــدٍ عـــريقْ
أُعَـوّضُـهم عن شَـقَـاءِ الحيـاةِ
بلحنٍ جـمـيلٍ وَصَـوْتٍ رقـيقْ
فـكـيفَ أَصُـبُّ لـهـم هَـمَّ أيـوبَ
زَيْتًـا على نارِ ذاك الحَـرِيقْ ؟
وكـيفَ أتاهُ شـقـاءُ السـقـامِ
وأيوبُ من عَـوَزٍ لا يُفِـيقْ ؟

(٤٧)

وقالَ صديقى غريبٌ كلامُك هَلْ كُنْتَ
تَحْدِسُ ما جالَ فى خاطِرِى ؟
وهل كنتَ تَدْرِى بأنّ حديثَ المنامِ
يَجِئُ بسُقْمِ الغَدِ الغَادِرِ ؟
لقد صارَ أيوبُ خِدْنَ الفِراَشِ

يُقَلّبُ جَنْبَيْهِ مِنْ مَرَضٍ كاسِرِ
ولا يَستريحُ بِنومٍ ولا عِنْدَ صَحْوٍ
لِقُرْحٍ بِبَشْرَتهِ فَائِرِ
ولكنّه ليس يشكو الزمانَ ولا
ما أتى من أَسىً غالبٍ قاهرِ
وكنتُ قليلَ الزيارةِ في الصَّيْفِ كيلاَ
أزيدَ تَأَسيِّ الفَتَى الصّابرِ
وأَعْجَبُ كيفَ بِهِ قد تَكَتَّمَ ما فيهِ
من أَلَمٍ مُقْعِدٍ آسِرِ
وذاتَ مَسَاءٍ سمعتُ فَتًى يتغَنّى
بِلَحْنٍ نَظيمةَ فى الأَمَلِ الوَافِرِ !

(٤٨)

وساءلتُهُ كيفَ جَاءَ بهذا الكَلاَمِ الرفيعِ

وهذا التَـغَنـيّ وتلكَ اللُّحـونْ

فقـال : "سـمعتُ نظيمـةَ تشدُو بِهِ ذاتَ يومٍ

بحفلِ زفافٍ بصوتٍ حنونْ

وعنـديِ وعـند الشبابِ ببُرْجِ رَشيدَ وُلُوعٌ

بصـوتِ نظـيمةَ لا بَـلْ جُنُونْ

فما إنْ سَمِعَنَا بِمُقدمِها وَالبِطَانَةِ حتـىّ

سَعَيْنا لنجـرعَ فَـنَّ الفُـنُونْ

وسِرْنا طويلاً أنا والصحـابُ ركبنَا الصعـابَ

وفـى الفَـنّ كلُّ الصعابِ تـهَونْ

سَهِرْنَا لِنَسْمَعَ ثـم نُـرَدّد حتّى الصـباحِ

وما غَمَضَتْ للصّحابِ جُفُونْ !"

وأدركتُ من مُجْمَلِ القَوْلِ أنّ نظيمةَ ليستْ

تُحـاوِلَ إلا اتّـقَـاءَ العُـيونْ

وتَقْبَلُ أجــــراً زهيداً يُســـاعِدُ أُسْرَتَها فـى
صِراع الحياةِ وقَهْرِ المَنُونْ !

(٤٩)

ومَرَّ الشتاءَ كئيبَ الليالي وما من ضِيَاءٍ لَدَيْنَا
سِوَى ما ذَوَى منْ شُمُوعْ
وأكثرتُ من طَرْقِ بابِ نظيمةَ كيْ أَطْمَئِنَّ علىَ
حَالِ شخصٍ عَصِيِّ الدُّمُوعْ
وكنتُ أريدُ التَّحقّقَ مما سَمِعْتُ وأُرضِي الفُضُولَ
بِقَلْـبٍ مُعَــنَّـى وَلُــوعْ
وفى كُلِّ يومٍ أراهَا تُغَنّى وتنشدُ من شِعْرِهَا
ما بَرىَ القَلْبَ بينَ الضُّلُوعْ
وأَيوبُ فى صَمْتِهِ صَابِرٌ بل يزيدُ اصْطِبَارًا
ويُبْدِى لِرَبِّ الوجودِ الخُشُوعْ

وكانَ إذا رَفَعَ الرأسَ كَرْهًا يعودُ طَرِيحًا
ومَالَ بآلامِهِ لِلْهُجُوعْ
وأَخْبَرْتُ شاعِرَتِي بالذى ذَاعَ من فَنِّها حَسْبَمَا
رَدَّدَتْهُ القُرى والنُّجُوعْ
فقالتْ فذلكَ ما كنتُ أَخْشاهُ حَقًا وصِدْقًا
ولا تَعْجَبَنْ كيفَ أَخْشَى الذُّيُوعْ

(٥٠)

ولم أُبْدِ دهشةَ غِرٍّ ولكننى قلت إنى
أريدُ لألحانها أن تَشِيعْ
وأَقْبَلْتُ أدعُو نظيمةَ قَلْبًا وعَقْلاً إلى نَشْرِ
فَنِّ السماواتِ بينَ الرُّبُوعْ
فما ضَرَّ مُطْرِبَ أىِّ زمانٍ وأَىِّ مكانٍ شُيوعُ
أغانيه بينَ الجميعْ !

كـأنّي به دَوْحَـةٌ تستـمدُّ الرحـيقَ من الأَرْضِ

كي تَنْتَشـيِ بالرَّحـيقِ الفُـرُوعْ

وأَصْـغَتْ إلّي بِشِـبْـهِ اقتناعٍ ولكنّها تَتَحَاشِـي

الـذُّيُوعَ بـقلـبٍ مَـــــرُوعْ !

وأَلْحَحْتُ في كُلِّ يومٍ إلى أنْ تَلاَشَتْ مَخَاوِفُهَا

عند مَـقْـدم فَـصْلِ الرَّبيـعْ

وجَاءَتْ إلى النّاسِ تَشْدُو بِشِـعْرٍ جديدٍ ورَنّاتِ

صَـوْتٍ غـريبِ اللُّحـونِ بـدَيعْ

وأَبْحَـرْتُ في لُجَجٍ من لُحـونِ السَّمـاءِ بدونِ المَجَـاديفِ

بل دُونَ نَـشْـــــرِ القُلُوعْ !

حديث الرياح

(٥١)

وحينَ تَمَلَّكَ لَحْنُ نَظِيمةَ سَمْعَ الحُضُورِ

لَخَفْقٍ بِقَلْبٍ غَزَاهُ انتشاءْ

تَخلَّتْ عن المُنْشِدِينَ الصِّغَارِ وكنتُ أنا

بَيْنَهُمْ مثلَ طَيْرٍ بأَعْلَى سَماءْ

وَرَنَّتْ نُغُوم الرَّبَابِ الجميلِ على غَيْرِ إيقاعٍ

ما فاتَ من نَغَمَاتِ الهَنَاءْ

وقَالَتْ سأُنْشِدُ لَحْنَ المَلاَئِكِ دونَ دُفُوفٍ

كما جَاءَنِي في أَمَاسِي العَلاَءْ:

(أ)

سمعتُ الملائكَ ذاتَ اللُّحونْ

تُغَنّى عن القَلْبِ راعِي الفُنُونْ

وتَحْكِى عَنِ الحَقِّ حينَ تَخَفَّى
وأصَبْحَ يَبَدْوُ نَظِيرَ الجُنُونْ

(ب)

تقولُ بأنّ امتدادَ الزَّمَانْ
نُثارٌ من الوَهْمِ فوقَ المكانْ
وأصداءُ حَقٍّ بعيدِ المنالِ
يغيبُ عن العَيْنِ فى كُلّ آنْ

(٥٢)

(جـ)

وليسَ الزَّمَانُ نظيرَ الزَّمَنْ
ولكنّه عابرٌ مُرْتَهَنْ
ملامحُ من خُطُواتِ الأبَدْ
ودَيْمُومَةٍ تَتَخَطّى المِحَنْ

(د)

وكُلُّ جَديدٍ بِأَيَّامِكُمْ
صَدىً للقديمِ بأَحْلاَمِكُمْ
رُؤىً سابحاتٌ كمثلِ السَّحابِ
وتَبْدُو كَحَقٍّ بِأَوْهَامِكُمْ

(هـ)

ألا تَشْهَدُون رَبَابَ السَّماءْ
وأمطارَهُ فوق أَرْضِ النَّماءْ
وفى فَمِهِ الرَّعْدُ ينطقُ حَقا
وبَسْمَةُ رَحْمَةِ بَرْقٍ مَضَاءْ

(و)

ولكنكم لا تَرَوْنَ الرِّيَاحْ
بِظُلْمَةِ لَيْلٍ ونُورِ صَبَاحْ

كأنّى بها الرُّوحُ سِرُّ الحَيَاةِ
تَدِفُّ ولكنْ بِغَــيْــرِ جَنَاحْ

(٥٣)

(ز)

كــأنّى بهــا من رِيَاحِ الخُلُودْ
نَرَاهَا بِأَنْفَاسِ هَذَا الوُجُودْ
تَهزُّ الجُسومَ وتَغْذُو العُقُولَ
ونَرْجُو لها إن خَبَتْ أن تَعُودْ

(ح)

كــأنّى بهــا زَمَنٌ لا يَبِيــدْ
أو الأَبَدُ الحقُّ طلقٌ مــديدْ
فــمنْ أَزَلٍ لا قَــرَارَ لَهُ
إلى كُلِّ صَعْبٍ عَصِيٍّ بَعِيدْ

(ط)

وفى مَكْمَنٍ من خَبَايَا النُّفوسْ
سَتَلْقَوْنَ سِرَّ الحَيَاةِ يَجُوسْ
عَلَيْكمْ بِتَذْكَارِ قَوْلِ الرِّيَاحِ
وما قد تُخَبّئُهُ مِنْ دُرُوسْ

(ى)

فلا تَطْمَعْ اليومَ فى سِرِّهَا
بِهَمْسِ النَّسَائِمِ أَوْ جَهْرِهَا
ولكنْ تأمَّلْ حَدِيثَ الرِّيَاحِ
وأَبْحِرْ مع الرُّوحِ فى بَحْرِهَا

(٥٤)

وَلَمْ أَكُ أُومِنُ بالمعجزاتِ الخَوَارِقِ
(لَسْنَا بِعصْرِ النُّبُوَّةِ والأَنْبِيَاءْ)

ولكنّنى - عندما اخْتَتَمتْ قَولَها -
وَجَدْتُ البرُوقَ تَشُقُّ عَنَانَ السَّماءْ !
ولم أَسْتَطِعْ غَمْضَ عَيْنِى عَنِ البَرْقِ أَوْ سَدَّ
أُذْنِى عَنِ الرَّعْدِ فى جَنَبَاتِ الفَضَاءْ !
وقُلْ إنّنى قد ذُهِلْتُ طَوِيلاً وأَصْوَاتُ
ريحٍ تُدَمْدِمُ فى كُلِّ قاصٍ ونَاءْ
تُرَاهَا من الأَصْفِيَاءِ بِدُنْيا المَلاَئِكْ ؟
وأنّى لها أن تكونَ مِنَ الأَصْفِيَاءْ ؟
وإنْ لم تكنْ من ذَوِى المُعْجِزات الكرامِ
فها هِىَ تغزو الربيعَ بِعَصْفِ الشّتاءْ !
فهل قالتْ الريحُ شيئًا لها أو أتاها
الملاكُ بِسِرٍّ تجلىَّ لها فى الخَفَاءْ ؟
وَقَفْنَا جميعًا ونحن نردّدُ هَمْسًا
نظيمةُ لا شكَّ من خَالِصِ الأَوْلِيَاءْ !

(٥٥)

وقلت لِخلِّى لَعَلَّكَ أَسْرَفْتَ فيما افْتَرَضْتَ
من القُوّةِ الحَقَّةِ الخَارِقَهْ
فبعضُ العَواَصِفِ تَغْزُو الربيعَ وتغزُو الخَرِيفَ
بصاعقةٍ نارُها حَارِقَهْ
وكم شَهِدَ النَّاسُ مما بَدَا معجِزاتٍ وليسَ
سوى شَطَحاَتِ السّما الدَّافِقَهْ !
وهلْ للملائِكِ أنْ تَسْتَجِيبَ لأحْلاَمِ فَردٍ
(ومَهْما تكنْ فى الكَرَى صادِقَهْ)
إذا لمْ يكنْ رَبُّ هذا الوُجُودِ يريدُ عِقَاباً
وإنذارَ أَهْلِ القُرىَ المارقَهْ ؟
وهلْ يتَبَدّى لنا من سَوَادِ الأهَالِى مروقٌ
جديرٌ بصاعِقَةِ ماحِقَهْ ؟

فقال لَقَدْ كان هذا بشيرَ اختلافٍ بأهلِ
رشيدَ ومعجزةٍ لاحقهْ
فقد أصبح الكُلُّ يدركُ أن نظيمةَ ليستْ
مُجَرّدَ مطربةٍ حاذقهْ

(٥٦)

وسرعانَ ما أَثْبَتَ الحدثان حقيقةَ ما قالَ
أهلُ القُرى عن رُؤَاهَا الحكيمهْ
فكانتْ تَمُدّ الضعيفَ بِقُوّةِ روحٍ من الشّعْرِ واللَّحْنِ
يُحْيى العِظَامَ الرَّمِيمَهْ
ويَلْقَى المريضُ به ما يَزِيدُ الفؤادَ ثباتًا
ويَغْشَى الخيالَ ويُذْكى العَزِيمهْ
وكانت تمدُّ الفقيرَ ببعضِ العَزَاءِ عن الضّيقِ
فى رِزْقِهِ والدُّروب السَّقِيمهْ

وتدعـوهُ للبـيتِ حـتى يَرَىَ كـيفَ يَصْـرَعُ أيّوبُ
بالصّـبْـر أوجـاعَ جِـسمٍ أليـمـهْ
وكـــانتْ تُقَـبـــرِّبُنِـى كلَّ يـومٍ بدفـءِ الـوَلـىِّ
وآياتِ عَطْفٍ وصِـدْقٍ حَـمـيـمـهْ
وكنتُ تخطيتُ طَوْرَ صِـبَـاىَ الغِـرِيرِ وإنْ كنتُ
أَرْجُـــو مـن الله لى أن يُـديمَهْ
لأنىّ أخـافُ إذا مـا شَـبَـبْتُ عن الطَّوْقِ ألاّ
أَظَلَّ الأثيـرَ بِدُنْيَـا نَظيـمـهْ

(٥٧)

وقلتُ لِخلِىّ فـذلكَ منْ سَنَواتِ صِـبَـاكَ فكيفَ
بدا الآن شيـئًا طَريفًا شَجِيّا ؟
لقد هِجْتَ يا صَاحِ أَشْجانَ من صَاحَبَ اللَّفْظَ دَهْرًا
فَتَاهَ ومـا عـادَ فى النَّاسِ شَيَّـا !

لماذا تركتَ الدِّرَاسَــةَ مِــثْلِى ورُمْتَ الخَــيَــالَ

فَخَــالَفْتَ رُشْـدًا وعَـقَـلاً ذَكِـيّا ؟

وكــيفَ انْتَــهَى حُبٌّ ذاكَ الغِنَاءِ بِفَــقْــرٍ وكــيفَ

نَبَـذْتَ وَرَاءَكَ عَـيْـشًـا رَضِـيّا ؟

إِخَــالُكَ فى أَسْــرِ ذَاكَ الغِنَاءِ تركتَ الحَــيَــاةَ

لِعِشْقِ التَّـهَاوِيمِ بالشِّـعْرِ غَيّا !

وكَـيفَ انتـهى أمـرُ أيوبَ قُلْ لى بصـدقٍ وأَفْـصِحْ

فـإنّك مـا كنتَ يومًـا عَـيِـيّـا !

وهل صَـحَّ حُلْمُ نَظْيـمَــةَ بـالبُـرْءِ بعـد اصْطبـارٍ

فعـادَ إلى النـاسِ كـهلاً سَـوِيّا ؟

وهل مـا انْطَفَا من لَهيبِ الشبـابِ يعودُ إلى المَرْءِ

بالرّوحِ حــتّى يَعُــودَ فَــتِـيّــا ؟

(٥٨)

وأَطْرَقَ راويتي ساعةً ثم قالَ وَهَا قد مَضَتْ
سنواتٌ عجافٌ ضروسْ
وزاد اشتدادُ الكروبِ على أُسْرةِ الصابرِ المستكينِ
وزادَ انقباضُ النفوسْ
وكان لِصَوتِ نظيمةَ في شَدْوِهَا بهجةٌ مثل أزكى
رحيقٍ بأزكى كؤوسْ !
وكانت تُخَفّفُ لذعَ المعاناةِ عن كُلّ قلبٍ فتحيى
رجاءَ الحزين اليئوسْ
وشاعتْ بدائعُ ألحانِها ثم ذاعَ صداها فأصبحَ
في كل صُقْعٍ يجوسْ !
وما عَتَّمَ الناس أن آمنوا أن طَرْحَ القُنوطِ هو الدرسُ
بل هو أسمى الدروس !

فلم يعد الفقر يبدو أليمًا ولَمْ يَعُدْ الداءُ يحملُ
وجهَ الكريه العَبوسْ !
وأصبح أيوبُ رَمْزَ الصُّمود يهزُّ قلوبَ العُتَاةِ
فيحنون شُمَّ الرؤوس !

(٥٩)

وَأَصْدُقُكَ القَوْلَ يا صاحبى إنّنى غبتُ فى لُجَّةِ اليأس
هذى السنين العِجَافْ
وكانتْ حياتى بِبَحْرِ نظيمةَ مثلَ السّباحةِ فى نَهْرِ
حُبٍّ عميقٍ وصَافْ
أغالبُ أَمْوَاجَهُ لا أخافُ هَلاَكَ الغَرِيقِ ولا
أبتغى نَجْوَةً بالضّفافُ
كأنّى أرى بالضِّفافِ بَلاَقِعَ مُجْدِبَةً قد بَرَاهَا
اشتدادُ الظَّمَا والجَفَافْ

وما كنتُ أرنو إلى رَغَدِ العَيْشِ بل اكتفى بالفُتَاتِ
من الرِّزْقِ قِيدَ الكَفَافْ
وكنتُ وغيرى من المنشدين الصغارِ بدنيا نظيمةَ
نلتفُّ أَىَّ التفافْ
نُصَاحِبُها بل نُشَارِكُها ما تَقُولُ وتَفْعَلُ فى كُلِّ
بادٍ لَدَيْهَا وخَافْ
وفى القَلْبِ من فَرْطِ حُبِّ اللُّحونِ هناءٌ عميقٌ يكادُ
يُذِيبُ حَواشِى الشَّغَافْ

(٦٠)

إلى أنْ أَتَتْ ليلةٌ من ليالى الربيعِ وكُنَّا
نُغَنّى لَدَى مُوسِرٍ غَدِقِ اليَدِ جَمِّ العَطَاءْ
إذ انتابَ شاعرتى ما بَدَا كالتَّجَلِّى فَأَوْقَفَتِ
اللَّحْنَ والْتَفَتَتْ مثلَ عَبْدٍ يُلَبّى النِّدَاءْ

وتاهتْ عن الجَـمْعِ نَظْرَتُهـا كـالذى يَتَنَاجَى
وحـيـدًا بِدُنْيَا مـشـارقُـهـا غـامـراتُ الضِّـيـاءْ
وحـارَ الصِّـحـاب - وكنّا على عَتَبَاتِ الشَّباب -
ولكنّنى لمْ أَحِـرْ بل رأيتُ انتـهـاءَ البَـلاَءْ
وبَشَّـرْتُ صَـحْبى ونَحْنُ نُحَـدِّقُ فـيـمـا بَدَا من
بعـيـدٍ كَـبَـرْقٍ بأنَّ المريضَ أَتَاهُ النَّجَـاءْ
وإذْ بالرُّعُـودِ تُدَوِّى وبـالرِّيحِ تَعْـصِفُ والماءُ
كـالسَّـيْلِ يجـرى وبالأرضِ تَرْتَجُّ رَجّ انْتِشَـاءْ
وإذْ بنظيـمـةَ تَبْـسِمُ مُـشْـرِقَـةً وَهْـىَ تَمْـضِى
إلى البَـابِ تَفْـتَـحُـهُ لِلّذِى جـاءَ جَمَّ الرُّواَءْ
أَجَلْ كـان ذلك أيوبَ يـخطوُ بغـيـر عَـصًـا
على قَـدَمَـيْـهِ كمنْ لم يُحَطِّمْـهُ من قَبْلُ دَاءْ !

(٦١)

وصِحْتُ لقد حَقّقَ الله مُعجزةً من سَمَاهُ
وها أنتمو تَشْهَدُون الثّوابْ
لقد أَثْبَتَ الصَّمْتُ فى صَبْرِهِ أنه مُفْصِحٌ عن
عَزِيمةِ من ذَاقَ ذُلَّ العَذَابْ
وهاكم صِحَابى رفاقَ التَّغَنّى بِشعْرِ نَظِيمَةَ
خيرُ سبيلٍ لحُسْنِ المآبْ
ألا فاثْبَتُوا فى مَراقِى الفُنُونِ وصِدْقِ الرؤى !
ألا فانْشُدُوا الحَقَّ خَيْرَ المَثَابْ !
وهلْ بَيْنَنَا من يُخَامِرُهُ الشَّكُّ فى أننا قد
عَرَكْنَا الزَّمَانَ ودُسْنَا الصِّعَابْ ؟
نَزَلْنَا بِبَحْرٍ غَرِيبٍ علينا فَغَرَّبَنا فى
صِراعِ التَّحَدّى بِخَوْضِ العُبَابْ

وما أَنْقَذَ اليومَ أَيُّوبَ غَيرُ التفافِ المُحِبّينَ
من حَولِهِ وثَبَاتِ الصِّحابْ
وما كانَ نِضْوُ العَيَاءِ يؤوبُ إذا لم يكنْ فى
غِنَاءِ نظيمةَ سِرُّ الإيابْ

(٦٢)

وهَلّلَ من كان حَولِى لِقَولى وأُهْرَعَ قَومٌ
إِلَيْهِ كأنّ الذى شَاهدُوهُ سَرَابْ
تَحَسَّسَهُ البعضُ وهو يكذِّبُ عَينَيْهِ أوْ ظَنّ
أن المساءَ أتى بالضَّبَابْ
وكيفَ يعودُ إلينا طريحُ الفِراشِ بِجِسْمٍ
صَحيحٍ وبَعْدَ فَواتِ الشَّبابْ
تساءلَ من كان حَولِى وكيفَ تَسَنَّى له أن
يَقُومَ فَيَهْزِمَ طولَ اغترابْ

ومن عَـجَبٍ أنّ صـاحِـبَنَا كـانَ جَمَّ الثَّـبَـاتِ
فَـبَـدَّدَ فى النَّفْسِ كُلَّ ارتيـابْ
يَسـيـرُ رَزِينًا ولا يَرْتَضِى الاسـتنادَ إلى
أَحَـدٍ بَعْـدَ هذا الغِـيَـابْ
وقـالتْ نظيمـةُ يا صَـحْبُ لا تَعْجَبُوا من شِـفَاءٍ
يُبَـشّـر بالسَّـعْـدِ من كُلِّ بابْ
فبالخِـصْبِ سوفَ تموجُ الحُـقُولُ وبالعُـشْبِ كلُّ
المَراَعِى وبالماءِ يأتى السَّـحـابْ

(٦٣)

وخـاصَمَ أَعْيُنَنَا النومُ حتى الصَّبـاحِ
ونـحنُ نُهَنّئُ أَنْفُـسَنَا بالشِّـفَـاءْ !
فقـد عاد للصّامدِ الصَّابرِ المُطْمَئِنّ
صِـبَـاهُ ولم تَبْقَ إلاّ وعـودُ الثَّـراءْ

وكان الصباحُ جميلَ المُحَيّا وَضِيئًا

يفيضُ بِبِشْرٍ عَمِيمِ السَّنا والسَّنَاءْ

وأَشْرَقَتِ الشَّمْسُ مثل الحقيقةِ تَعْلُو

كأنْ لم يَكُنْ عاصفٌ غاطسٌ بالمَسَاءْ

ونِمْنَا وفى الجَفْنِ حُلْمُ النَّعيمِ المُرَجَّى

وفى النَّفْسِ أَصْدَاءُ وَعْدٍ بِصدْقِ الرّجاءْ

ولكنّ كرَّ الشهورِ أتى بالذى

قَهَرَ الحُلْمَ بل فَتَّ فى عَضُدِ الأَوْفِيَاءْ

فَأَقْعَدَنا الجَدْبُ واشْتَطّ فينا الهُزَالُ

وشَلّ اللِّسانَ وكادتْ تَجِفُّ الدِّمَاءْ

وها أنَذَا جِئْتُ أَطْلُبُ قَرْضًا لِنَفْسى

لأُبْعِدَ عن خاطرى اليومَ رُعْبَ الفَنَاءْ !

(٦٤)

وعادَ الصديقُ إلى الصَّمْتِ فى حَيْرَةٍ مثلَ ضَالٍّ
يَهيمُ على وَجْهِهِ شَارِدَ اللُّبِّ فى كُلِّ وَادِ
ولم أكُ أَعْزُو اكتئابَ صديقى وحُزْنَ الفؤادِ
إلى ما يُعانيه من فاقةٍ أو شَتَاتِ المِهَادِ
وقلتُ لَعَلّ الفَتَى قد تكتّم سرًّا مُهِمّاً
فلم يَجْنِ إلا التأسّى وحيداً وطولَ السهادِ
فهل قَطَعَ العُمْرَ ينشُدُ حلمًا بعيدَ المنالِ
ويُخْفى حقيقَتَه دائمًا عن عُيُونِ العِبادِ ؟
وهلْ كان يَحْلُمُ أنْ يصبحَ الشّاعِرَ العَبْقَرِيَّ
فخابَ وأَصْبَحَ يكسُو الحياةَ بِلَوْنِ السَّوادِ ؟
وهل كان يهوى نظيمة سِرّاً ويكتمُ ما
يَعْصِرُ النّفس عصراً ويَحْرِمُ جَفْنَيْه نُعمى الرقادِ ؟

وأَحْـــسَـــسْتُ أنّي أنا مِـــثْلُهُ حـــائرٌ قـــد تقطَّعَ
مـــا كـــان يَرْبِطُنى بالحـــيـــاةِ لِطُولِ ابتـــعـــادى
وقَـــرَّرْتُ ســـاعَـــتَـــهـــا أن أعـــودَ إلى مَـــوْطِنِى فى
ثَبَـــاتِ الذى ملّ طُولَ التَّـنَقّل بين البــــلادِ !

(٦٥)

وبعـد اســتـضـافـةِ خِلّى زمـانًا قـضـيناهُ فـيمـا
بَدَا كــالوداعِ لِوَهْمٍ مُـــحَـــالِ
رَكِـــبْنَا مـــعًـــا عـــائديْنِ إلى مَـــوْطِنِى وفُـــؤَادِى
يموجُ بذكـــرِ قَـــدِيمِ اللَّيـــالى
وأَحْسَسْتُ عُمْرِي يَغِيضُ وشِعْرِى يفيضُ لِيَطْرَحَ
فى مَسْمَعِ الصّبْحِ مُرَّ السُّؤَالِ:
تُرى هَـلْ تَغَـيّـرَتِ الآنَ - بـعـدَ السنينِ الطِّوَالِ -
مَـرَاتِعُ لَهْوى بِظَهْرِ الرِّمَـالِ ؟

فكمْ من سُوَيْعَاتِ سَعْدٍ قضيتُ وحيداً أُغَنّى
بِكُثْبانِها أو بِبَعْضِ التّلالِ !
وكنتُ طُوَالَ الطَّريقِ أرَاهَا بِعَيْنِ خَيَالى
حَمَارَّةَ قَيْظٍ وَبْرَدَ ظِلاَلِ
وأُذْنىِ تَرَى فى نُغُومِ الحُرُوفِ فُتُونًا كَوَقْعِ
بَهَاءِ المُحَيّا وسِحْرِ الجَمَالِ
وها قد تَغَيّر حُلْمُ الزَّمانِ غَدَاةَ اغْتِرَابى
وما ذُقْتُهُ من تَبَدّل حَالىِ

(٦٦)

وقُلْتُ لِنَفْسىِ عَشِيّةَ أنْ لاحَ رَمْلُ رشيدَ
ومـاءُ القناةِ ورَوْضٌ أَرِيضْ :
هنالك يَفْتَرُّ ثَغْرُ الزَّمان ويَرْجِعُ بالعُمْرِ
ساقىِ المَشَاعِرِ مُوحىِ القَرِيضْ

هنا يتـغنّى هَزَارُ الطبـيـعـة فـوقَ الغُـصـونِ
فَيُذْكي الشَّبابَ ويَشْفي المَريضْ !
وقلتُ لِخِلِيّ فَـذَلِكَ مـا جَـاءَ بيِ من شَـتَـاتٍ
إلى الحُبّ في كلِّ قلبٍ يفـيـضْ
ولكنّ خِلِيٍّ بدا شــــارد اللب ثم انثنى
يُغَنّى نشـيـداً بصـوتٍ خَـفِـيضْ
وفى الوَجْهِ فَرْحَـةٌ من لَمَحَ السَّعْدَ يأتى حَثِيثًا
وفي العَـيْنِ برقٌ ولمع وَمِـيضْ
عـجبتُ فـقـد كـانَ خِلّى حَـزِينًا كـئـيـبًا وأَلْقَى
به الحُزْنُ فى دَرَكَاتِ الحَضيضْ !
فكيفَ بهـذا الحَزِينِ بَشُـوشًـا سَـعِـيداً وكـيفَ
تَحَـوّلَ فى لَحْظَةٍ للنَّقِـيضْ ؟

(٦٧)

وسَرْعَانَ ما جاءَ تفسيرُ ما كانَ لُغْزًا غَرِيبًا
فَــأذْهَبَ عنّى دواعى العَــجَبْ
إذ التَـفَتَ الخِلُّ للرَّوْضِ من حَـوْلِنَا فى انْتِـشـاءٍ
ونحـنُ جـــوارَ الرياضِ نَـخُبّ
وقـــالَ فـــهــذِى الرياضُ لأيوبَ قـــد أَثْمَـــرَتْ
واكْتَسَتْ سُنْبُلاً بنواصِى الذَّهَبْ
وتلكَ الغُــصــونُ تَتِــيــهُ بِزَهْرٍ جَــمــيلٍ ، ولَوْنُ
الوُرودِ يَضِجُّ بوقْـــــدِ اللَّهَبْ
وتلكَ المِيــاهُ تســيــلُ بِلَحنِ الخَــريزِ الجــمــيلِ
لِنَنْسَى به الآن مــا قــد نَضَبْ
وقـــال لَعَلّ الإله اســـتـجـــابَ لأيوبَ حــقًــا -
وها نـحـنُ من دارِهِ نَقْـــتَـــرِبْ

وأَشْرَقَ فى الخِلِّ بعضُ الصَّفَاءِ القديمِ فَأَمْسى يُغَنِّى
لحــونَ غــرامٍ تُشــيعُ الطَّرَبْ
وزَالَتْ مــشــاقٌّ الرحــيلِ عن النَّفْسِ بل زَالَ عَنَّا
جـمــيعُ الذى هَدَّنَا من نَصَبْ !

(٦٨)

وعندَ الوُصــولِ ســمــعتُ الذى خِلْتُــهُ لحنَ حُبٍّ
تكادُ عــذوبتُــه أن تبــوحْ
إذ اسْتَـقْبَلَتْنَا لدى البـابِ حـوريةٌ فى صِـبـاها
بقــدٍّ رشــيقٍ ووجــهٍ صــبــوحْ
وخِلْتُ كـأنّ بصـفـوِ المُحَـيّـا عـبـيرًا خَـفِـيًّـا
بِهِ كُلُّ عِطْرِ الصَّــبــاحِ يَفُــوحْ
بِهِ مــثْلُ قَطْرِ النّدى لؤلؤٌ ســاطعٌ فــوقَ زَهْرٍ
بروضٍ تَنَاثَرَ فــوق السُّــفُــوحْ

وفى طَرْفِها حَوَرٌ ساحرُ النِّورِ كالفجرِ يَزْهُو
وفى كُلِّ آنٍ وصُقْعٍ يلوحْ
وأَحْسَسْتُ أنّى أنا الكهلُ أَرْنُو كليلَ اللّسانِ
مخافةَ أنْ يتبدّى جُنُوحْ
وقُلْتُ فيا لَيْتَنِي عُدْتُ شابًا شَرِيدَ الزّمانِ
لأُطْلِقَ خَيْلَ خَيَالِي الجَمُوحْ
وقلتُ فليتَ العَليلَ يرىَ فِطْرَةَ الله فيها
فَيَشْفِي الهَوَى غَيْرَهُ من جُروحْ !

(٦٩)

وغبت عن الركب آنًا كأنى أناجى الهواء
وأَقْتَاتُ فى خَاطِرِى بالخَوَاءْ !
وغام الوجود بعين الذهول إزاء الجمال
كأنّ الوجودَ قرينُ الفَضَاءْ

عَجِبْتُ وقلتُ وكيفَ وقد جُزْتُ طَوْرَ الشَّبابِ
ولم يَبْقَ فى القَلْبِ إلا الهَباءْ
وأيْنَ التَّعَقُّل أين التَّرَوِّى بِلحْظَةِ نُضْجٍ
وحِكمةِ رُوحٍ ذَوَتْ من جَفَاءْ
تُرانىِ أُصِبْتُ بِوَهْمٍ جديدٍ يَشُلُّ الحَواسّ
كمن صَعِقَتْهُ بروقُ السّماءْ ؟
تَمَالَكْتُ نفسى قَلِيلاً وعُدْتُ إِلَيهْا ذَليلاً
أُسائِلُها سِرَّ هذَا العَنَاءْ
ولم أَدْرِ هَلْ صاحبى الآنَ يدرِى بما كان مِنّى
تُراه تَبَيّن سَهْمَ القَضَاءْ ؟
وأَيْقَظَنى من دُوَارِ التَّسَاؤُلِ (قَيْدَ الذُّهُولِ
بِسِحْرِ الجَمالِ) عجيبُ غِنَاءْ !

(٧٠)

ومــا كــانَ إلا غِنَاءَ الصــديقِ جـمــيــلاً حَــزِينًا
كَــمَنْ يَتَــشَكّى عــذابَ الغَــرامْ
فــهلْ كــانَ ذلِكَ سـرَّ شـقــاءِ صـديقى ؟ عَــجِـبْتُ
ورُمْتُ ســمــاعَ حــديثِ الهُــيَــامْ
وبعــد الســلام وتَذْكَــارَ جَــوْرِ الزَّمــانِ وكَــيْفَ
يعــودُ ابتــســامًــا لِبَــعْضِ الأنَامْ
لَقِــيتُ نظيــمــةَ فى بَهْــجَــةِ النَّصْــر تَزْهُــو بِبِــشْــرٍ
وتَنْشُـــرُ فى النّاس رُوحَ الوِئَامْ
وألْفَــيْتُ أيوبَ كــالمَلِكِ الحَقّ يَخْــتَــالُ فــرْحًــا
بِعَوْدِ الصّفَا وانْقِشَاعِ الغَمَامْ
وعِنْد المَسَـــاءِ خَلَوْتُ بِخِـــدْنى لأعْــرِفَ منه
حــقــيــقــةَ مــا هَدَّهُ من أُوامْ

ومـــا لَبِثَ الخِلُّ أن قَصّ قِــصَّـــتَـــهُ فَــأفَــاضَ
بقــولٍ صَــريحٍ أَمَــاطَ اللِّثــامْ
وهَاكُمْ صِــحَــابِى حــديثَ الخليلِ ومــا قــالَهُ لى
بِصِـدْقٍ يَزِيدُ اشــتـعـالَ الضّــرامْ :

(٧١)

وقــالَ صــديقِى : لقــد كــانَتْ البنتُ بنتَ جـمـيلةَ
(من هَـجَـرَتْ حيِن مــالَ الزَّمَـانْ)
وكنتُ أَرَى فـى طُفُــولَتِــهــا بســمــاتِ الرّبيعِ
ونَــوْرَ الــزُّهُــورِ ودِفْءَ الحَـنَــانْ
ولم أكُ غـيــرَ صَــبِىٍّ تَسَــاقى رحــيقَ الجَـمَــالِ
فَـــعَـــذَّبَهُ الحُبُّ قـــبلَ الأوَانْ !
وعِنْدَ رحــيلِ جــمــيلةَ وابنتــهـــا أَظْلَمَتْ فى
عُـيـونِى الحَـيَـاةُ وضَــاقَ المكانْ

وقلتُ : لقـد جَـارَ دَهْرِى فـشــاركتُ أيوبَ فـى
خَوْضِ محنته (أىُّ حَرْبٍ عَوَانْ !)
سَــأَسْلُو هَوَاها وأَنْسَى لَوَاذِعَ قلبىِ الصَّـغِيـرِ
وأُهْـرَعُ للشِّــعْــرِ فى كُـلّ آنْ
ووطّنتُ نفسى على الهَجْرِ واشْتَغَل القَلْبُ عَنْها
بِفَنّ الغِنَاءِ وسِــحْـرِ البَـيَـانْ
وكنتُ أرى فى غِنَاءِ نظيــمــةَ تَسْــرِيَةً عن
عَــذَابٍ يماثُل لَذْعَ الهَــوَانْ !

(٧٢)

ولكنّهــا عــادتْ اليــومَ ! قــالَ صَـديقى فكيفَ
أُصَـالِحُ أَحْـلاَمِىَ الضَّـائِعَـاتِ ؟
تُرانـى سـأَنْسى سنينَ البِــعـادِ وأَنْسَى العَـذَابَ
وأفـتـحُ للصَّــفحِ بابَ الحَـيَـاةِ ؟

تُرانى سَـأَنْسى الذى فَـعلَتْ أُمُّـهـا بأبيـهـا

وأقـبلُ بَعْـثًـا بِبَـرْدِ المَـاتِ ؟

تُرانىِ سـأَغْـفِـرُ صُـحـبتَـهـا لجـمـيلةَ يَوْمَ

رحـيلٍ مـريرٍ غَـدَاةَ الشَّـتَـاتِ ؟

وكـيفَ سَـأَنْسـى مُـغَـادَرَة الرّكْبِ للبـيتِ صُـبْحًـا

وفَـوْقَ الوُجُـوهِ ابتـسـامُ النَّجـاةِ ؟

لقــد سلَبَتْ أُمُّــهــا ثِقَــتى فى النّســاءِ ولَوْلا

نظيـمـةُ مـا عـدتُ أَعْـرِفُ ذاتى !

فـهل باتَ حُـسْنُ الوجـوه قِنَاعًـا ؟ وهل باتَ يـزهـو

بطُـهْـرٍ على أوجــهِ الخــائنـاتِ ؟

وهل حُـسْنُها فوقَ حُـسْنِ الوَفَـاءِ وأَحْلى من الصَّبْر

أو من صَدَى الشِّـعـر والأُغنياتِ ؟

(٧٣)

وقلتُ له يا صـديقى حَـفِظْتَ حـديثَ التُّرابِ
ومـا عُـدْتَ تذكـرُ نَجْـوى الأمَلْ !
لقـد كـانت البنتُ آنَئِـذٍ طفلةً غِـرّةً
بِعَـقْلٍ بـرئٍ ولمّـا يَـزَلْ !
وَكَلُّ فـتـاةٍ تُحِبُّ أباها ولكنهـا تَتْـبَعُ
الأمَّ دَوْمًـا كَـشَـأْنِ الحَـمَلْ !
فكيف تُحـاسِبُـها اليـومَ هذا الحسابَ وكـيفَ
تقـولُ لقـد زَلّ منْ لمْ يَزَلّ ؟
لقـد عـادَ أيوبُ للعَـيْشِ بالصَّبْـرِ بلْ بِنَظيـمـةَ
فى شَـدْوِها عن رياح الأَجَلْ !
وأَحْـرىَ بِكَ اليـومَ أنْ تسـتـعينَ بما قُلْتَـهُ عن
تَخَطّى الصِّعـابِ وصَبْرِ البَطَلْ !

فـإنْ شِـئْتَ بَعْـثًـا جـديداً فـلا بُدَّ من طَـيٍّ هذى
الصـحيفـةِ واسْلُكْ طريقَ العَـمَلْ !
وأومـأ خِلِـيٍّ كَـمَنْ راقَــهُ مــا أقـولُ وفـى العينِ
جُــــرْحُ هـوىً باردٌ مُـنْـدَمِـلْ !

(٧٤)

وأَحْــــبَـــبْتُ ألاّ أفـــارقَــه دونَ وَعْـدٍ بِنَفْيِ
جـمـيلةَ من ســانحـاتِ الخَـيَـالْ
ولكنّ صـمـتًـا طويلاً تَـحـدَّثَ عن عُـمْقِ جُـرْحٍ
تَكَـتَّـمَـهُ صَـامـداً كـالجـبـالْ
ويكرهُ أن يُشْـــرِكَ النـاسَ فـــيــهِ لِئَــلاَّ يظُنّوا
به المَسَّ أو هَمَـسَـاتِ الخَــبَـالْ
وطافتْ بِذِهْنِيَ صــورةُ مَنْ هَامَ حُـبـا بجــاريةٍ
وَصْلُهـــا من قَـــبِـيلِ المُحَــالْ

وقلتُ لعلَّ الحبيبَ نظيمةُ ! لِمْ لا ؟ فقد
يَعْشَقُ القلبُ رغم ذَهَابِ الجَمَالْ
وما كِدْتُ أَهْمِسْ باسمِ نظيمةَ حتّى انْتَفَضْ !
كمن عَذَّبَتْهُ ذُنُوبٌ ثِقَالْ
وأدركتُ أنّى أَصَبْتُ بِحدْسى فذلكَ حُبٌّ
عميقٌ بلا أملٍ فى الوِصَالْ
وأشفقتُ مما اعْتَرَى صاحبى مثل رِعدةِ رُعْبٍ
وأَحْجَمْتُ عن طَرْحِ أىّ سُؤالْ !

(٧٥)

سَهِرْنا وبعد انْفِضَاضِ الكَلَامِ افترقْنا وفى النَّفْسِ
آثار لَذْعِ انفضاحٍ صُراحْ !
ولم أَلْقَ فى الجَفْن أىَّ بَصِيصٍ من النَّومِ يُسْكِنُ
ثائرَتى وانْكِسَارَ الجَنَاحْ

وعند انْبِـلاَجِ الضّـيـاءِ هُرِعْتُ إلى مَنْزِلِ الخِلِّ
أَنْشُـدُ تضـمـيـدَ كُلِّ الجـراحْ

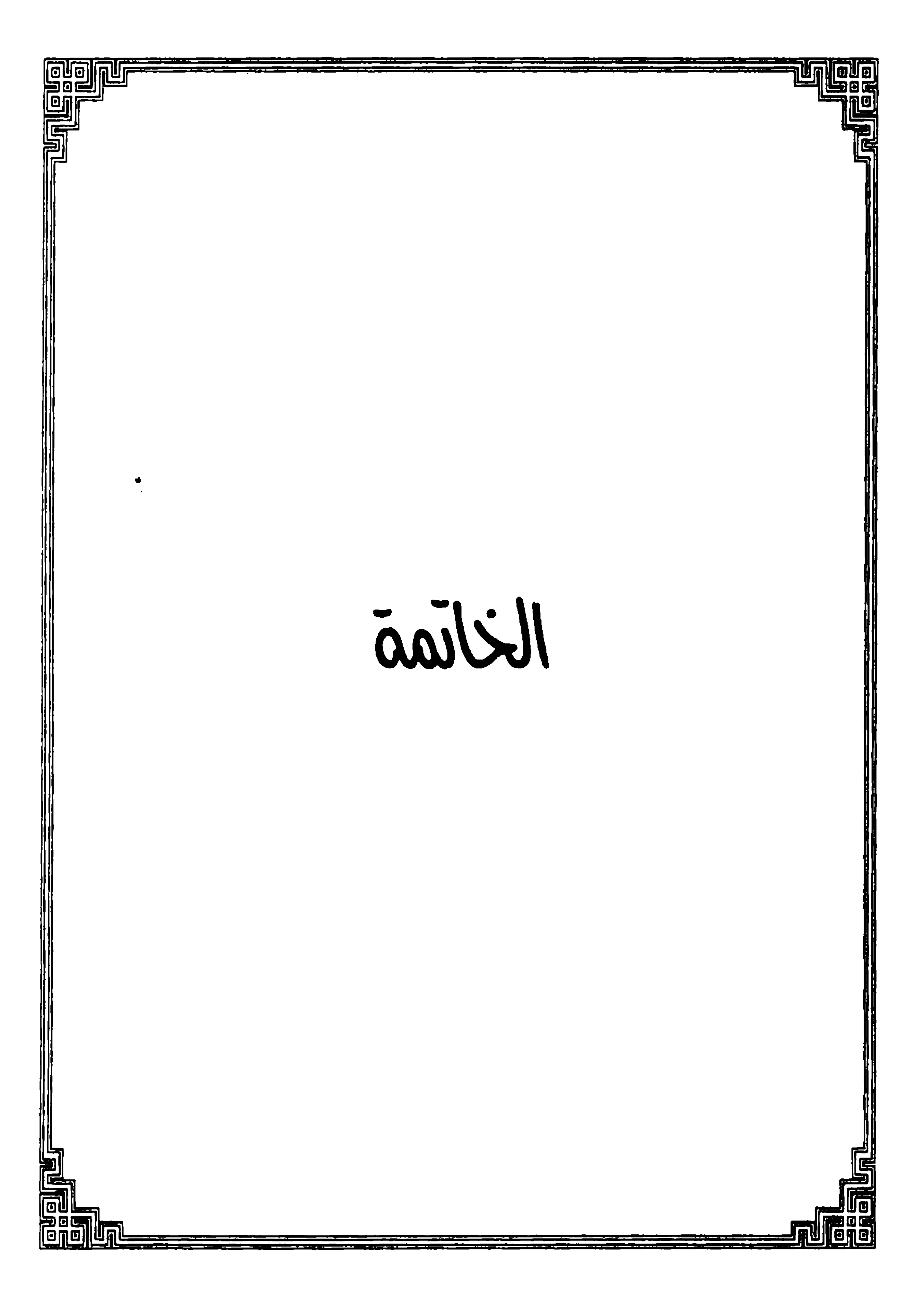
وفى الجَـوّ من بَسَـمَـاتِ الربيعِ شَـذًا من زُهورِ
رشـيـدَ بكلِّ الرُّبا والبطاحْ

عـبـيـرٌ من النَّوْرِ فى أرضِ أيوبَ شـرقًـا وغـربًا
يُكلّلُ هامـتَـهـا كـالوِشَـاحْ

وفى النَّفْسِ آمـالُ بَعْثٍ جـديدٍ يجـوبُ الرّياضَ
وأحـلامُـهـا مطلقـاتُ السَّـراحْ

ولكننى لم أَجِـدْ صـاحـبى بل سَمِـعْتُ بأنّ الفَـتَى
غـادرَ الدَّار عِنْدَ الصَّـبَـاحْ

سَـأَلْتُ ولكنّنى لم أَجِـدْ للصّـديقِ سَـبِـيـلاً
كـمن ذَابَ فى دَفَـقَـاتِ الرياحْ



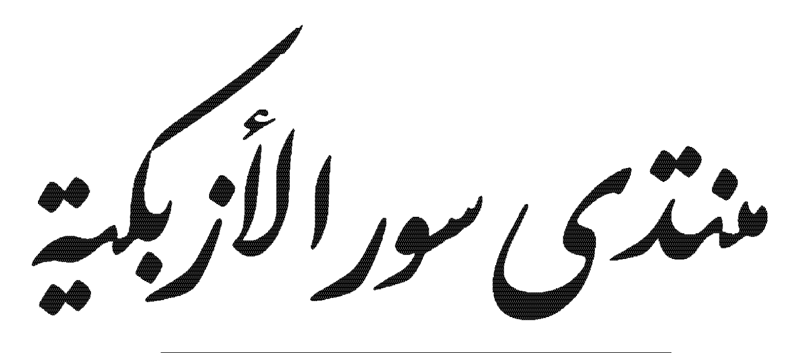
الخاتمة

(٧٦)

وها أَنَذَا يا رِفَــاقَ المَســاءِ
أقصُّ عليكمْ حــديثَ الزَّمــانْ
وكمْ كنتُ أرجو ختامًا سعيدًا
لصــبــرٍ طويلٍ غَـذَاهُ الحَنَانْ
وحُبٍّ عـمـيقِ الجذور تَرَعْرَعَ
صِدْقًا فـأنطقَ سِحْرَ اللّسانْ
ولكنّ هذا الصـديقَ اخـتـفى
كمن خَسَرَ الشَّوطَ عند الرِّهانْ
لقـد هَامَ حُبًا بِصـوتٍ رخيمٍ
وألحانِ من عَشِقَ المشـرقانْ
فـشِـعْرُ نظيمـةَ يحـيـا لَدَيْنا

تغنَّى به كلُّ قــــاصٍ ودَانْ
أحــالَ القِـفـارَ رياضًــا ترفُّ
وجـــاءَ إلى أرضِنا بالجِنَانْ
ومـــا كـــان إلاّ دعـــاءً لقلبٍ
بإيمانه قــد تَخَطَّى المكانْ !

الفهرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٤/١٠٤٢٠

I.S.B.N. 977 - 01 - 9073 - x